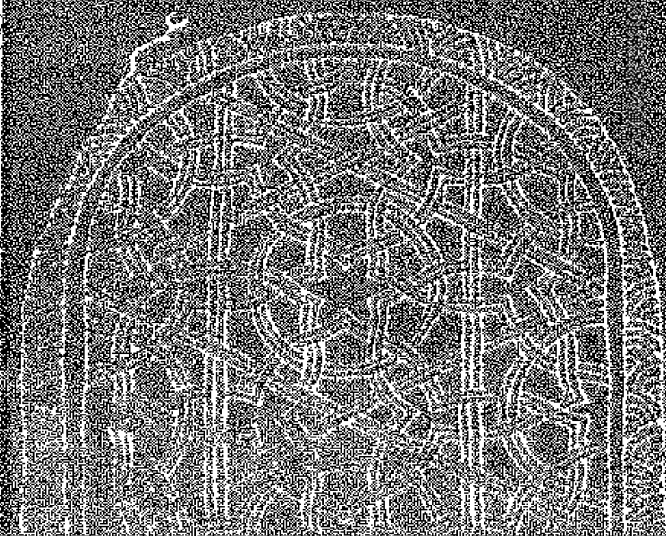


الْعَمَلُ الْكَامِلُ

٩

صَلَاةُ الْإِسْلَامِ
بِمَصْلُحِ الْمَسِيحِيَّةِ



Libretto Alaudha

الأعمال الكاملة

الجزء التاسع

صَلِّتْهُ إِلَى السَّلَامِ
بِإِصْلَاحِ الْمَسِيحِيِّ

أَمِينُ الْخَوْلَى



الهيئة العربية الماسية للدراسات

١٩٩٣

صلة الاسلام باصلاح المسيحية

بحث قدم والقيت خلاصته

فى مؤتمر تاريخ الاديان الدولى السادس المنعقد بمدينة بروكسل

من ١٦ الى ٢٠ سبتمبر ١٩٣٥

الاجراج الفنى والغلاف : عمر حماد على



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة (١)

من قلم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر محمد مصطفى
المرافى شيخ الجامع الأزهر

فى سنة ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م دعى الأزهر لحضور
مؤتمر تاريخ الأديان الدولى السادس المنعقد بمدينة
بروكسل ، فى شهر سبتمبر من تلك السنة ، فلبى الدعوة
وأوفد حضرتى صاحبى الفضيلة ، الأستاذين مصطفى
عبد الرازق ، وأمين الخولى ، وقد اختار الأستاذ الخولى
موضوعا لبحثه «حادث الاصلاح البروتستانتى فى المسيحية»
فكتب فيه هذه الرسالة ، بحثا عن الصلة بين هذا الحادث
وبين الدين الاسلامى والعلوم الاسلامية .

موضوع طريف ، وبكر - فيما أظن - ويبدو كأنه
غريب . لكن الأستاذ الخولى بما منح من راحة العقل ،
ودقه البحث ، وسعة الاطلاع ، استطاع أن يزيل هذه
الغربة ، وأن يمهد الطريق للوصول الى رأى صائب فى
الموضوع .

(١) ألب الناس من هذه المقدمات ما هو التقريظ أو ما يشبهه ، لكننا أراد الله أن
تكون هذه المقدمة مثلا من حرية الفكر ، وتزاحة النظر الدينى فى مناقشة مولانا الأستاذ
الأكبر ، لنتائج هذا البحث ، بما تركته بين يدي العارى دون تعليق - المؤلف .

وحركة الاصلاح المسيحي حادث من الحوادث البارزة
فى تاريخ الأديان ، وما من حادث فى هذا الوجود ، الا وهو
أثر لغيره ومؤثر فى غيره ، والحوادث العظيمة ترتبط عادة
بأسباب كثيرة سابقة ، وقد يكون السبق بزمن طويل ، ثم من
الأسباب ما يكون واضحا ، ومنها ما يكون خفيا حتى لا يدرك
الا بعد العناء ، أو بعد سفر من الخاطر طويل .

وقد شاء الأستاذ الخولى أن يرى صلة حركة الاصلاح
البروتستانتى بأصول الاسلام ، وعلوم الاسلام ، ونظم بحثه
على ثلاثة فصول :

الأول : فى اثبات الاتصال المادى بين الاسلام والمسيحية
فى أوروبا .

الثانى : فى اثبات الاتصال المعنوى بين الاسلام
والمسيحية فى أوروبا .

الثالث : فى آثار ذلك الاتصال .

★★★

وقد أثبت الاتصال المادى والمعنوى ، بما أرى أن فيه
غناء للمنتصف . فالحروب بين الاسلام والمسيحية فى الشرق
والغرب ، وتبادل الأسرى ، والفتح وبسط رواق الحكم
والسلطان الاسلامى فى الغرب ، وغزو الفرنجة بلاد المسلمين ،
واختلاط الجند فى الشرق والغرب ، واستعانة المسلمين
بغيرهم فى مرافق الدولة وأعمال الحكومة ، واستعانة
غيرهم بهم فى ذلك ، والوفود التى تفد من الجانبين للصلح
وتقرير العلاقات ، أو لرواد البلاد ، والانتفاع بما فيها من
مناخ وموارد ، وتبادل التجارات ، كل ذلك لا يدع مجالا
للشك فى هذا الاتصال المادى وقوته .

ثم مرور حقبة طويلة من الزمان ، كان الغرب فيها
غارقا فى الأمية والجهالة ، وحركة نقل المعارف الاسلامية
وترجمتها ، وترجمة القرآن الكريم نفسه ، وتعلم اللغة
العربية ، واللغة العبرية لأنهما لغتا العلم ، والواسطة

لدراسة العلوم الاسلامية وعناية الملوك والأمراء ، ورجال الدين بهذه الحركة والتأثر بأعلام العلماء الاسلاميين ، كابن سينا ، والغزالي ، وابن رشد . كل ذلك ثابت ، وقد أتى الأستاذ بالشواهد عليه ، وبالأسانيد التي لا تقبل الجدل ، وهو برهان الصلة المعنوية بين الغرب وبين الاسلام ، ومن الحق أن يقول الأستاذ بعد استيفاء هذا كله (. . من كل هذا يتجلى للقارئ التأثير الاسلامي الذي أوضحننا قوته في أوروبا بعمامة ، وأنه كان بخاصة في البيئة الجرمانية - الميدان الأخير للإصلاح - واضحا قويا) .

ومن الواقع أن حادث ظهور الاسلام وانتشاره بالسرعة الفائقة التي انتشر بها في الشرق والغرب ، وخلافته على دول عريقة في المدنية والأدب ، قوية السلطان ، واقتتران ذلك بالقوة المادية ، وسلطان الحكم ، والاستيلاء على البلاد التي جاءها ، وحصول ذلك على أيدي رجال لم يعرفوا من قبل بعلم ومدنية ، ولم يعرفوا بنظام حربي دقيق ، من شأنه أن يحمل المغلوبين وغير المغلوبين على التفكير في الروح التي وصلت بهؤلاء الى ذلك المجد الحربي ، والمجد الروحي والى ذلك السلطان القاهر ، وفي الأسباب التي أثارت هذه الروح ، وفي معرفة ما جاء به القرآن الكريم ، وما جاء به من نزل عليه القرآن الكريم ، ومعرفة ما تخلقوا به ، وما اتخذوه نظاما لهم في حياتهم العامة . والخاصة ، أضف الى ذلك أن المسلمين لم يكتفوا بالقوة المادية ، وقوة الوحي ، بل سعموا الى المعرفة يتلمسونها في كل ناحية من الأرض ، وقام خلفاؤهم على حياطة الحركة العلمية وشاركوا فيها ، واشترك فيها من تسلسل من البيوت العريقة في المجد ، ومن كان من الموالى وأشباه الموالى ، ثم ما اتصف به الخلفاء الراشدون ، وأكثر الولاة في عهدهم واتصف به غيرهم ممن بعدهم . مما حبيب الى الناس أرضهم وبلادهم ، وحبيب اليهم حكمهم والاستغلال برايتهم . وعلى ذلك يمكن القول مع الاطمئنان بأن هذا الاتصال أثر أثره ، وعمل عمله دون اقامة الشواهد

والأدلة ، فإن هذا طبيعى يدركه كل من راقب سير الوجود،
وسير العلم فى هذا الكون .

وقد كانت اليابان أمة لا يأبه لها الغرب ولا يعدها فى
مصاف الدول المتمدينة ، حتى جاء حادث الحرب بينها وبين
الروسيا سنة ١٩٠٤ ، وكان لها الغلب فتغيرت موازين
الأمور ، وتغير قدرها ، ونظر اليها الغرب نظره الى أمة
عريقة فى المجد ، وعاملها المعاملة التى يستحقها مجدها
الحربى والعلمى .

لكن ربط حركة الاصلاح المسيحى خاصة ، بالدين
الاسلامى ، والمعارف الاسلامية : من فلسفة وتصوف وما الى
ذلك يتطلب بلا شبهة اقامة الشواهد ونصب الأدلة ، وهذا
ما حاوله الأستاذ الخولى فى رسالته .

ويجدر بنا أن نشير هنا الى جملة حكمة قالها الأستاذ
فى الرسالة وهى : أننا « حين نفسر هذا الاتصال وذلك
التأثر ، لا نزعّم أنه هو وحده الذى خلق حركة الاصلاح
المسيحى ، وأنه سببها الأول والأخير ، بل نقدر ما هنالك من
أسباب وعوامل اجتماعية ، ودينية ، وغيرها قد عملت
عملها ، وتركت أثرها ، ودفعت الحياة الى ذلك الاتجاه ،
فلفتتها الى الناحية العقلية والدينية ، التى قربها لها وقدمها
بين يديها ذلك الاتصال بالشرق الاسلامى ، فمقصودنا العلمى
انما هو القاء الضوء الكافى على الجانب التاريخى من اتصال
الدينين المسيحى والاسلامى ببيان هذا الاتصال وأثره » .

فهذه الكلمة الصادرة عن نزاهة فى البحث، وعن اعتدال
فى تقدير الأشياء تدفع ما قد يظن أنه يوجه الى البحث من
نقد ، فالأستاذ لا يدعى أن الاصلاح المسيحى ثمرة مباشرة
للمعارف الاسلامية ، تفردت تلك المعارف بايجادها
ولولاها لما وجد الاصلاح بل يصرح بأن الاصلاح كان نتيجة
لعوامل كثيرة اجتماعية ودينية وغيرها ، وغاية الأمر أن
المعارف الاسلامية كانت تحمل العناصر التى يمكن أن تصاغ

منها أمنية المصلحين ، وأنها جذبت الأبصار اليها ووجهت
المقول نحوها ، وخلقت مزاجا أعانهم على ما اختاروه .
ومثل هذا حاصل الآن عندنا ، فان اتصالنا بالحديث
بالغرب اتصالا ماديا ومعنويا ، ونقل آثاره العلمية الى لغتنا ،
ومعرفتنا بلسانه ، ثم تفوقه الحربي والعلمي ونفوذه
المنبسط على الشرق ، كل أولئك قد بعث في الشرق روحا
جديدة تغاير الروح التي كانت سائدة في القرن الماضي ،
يل غير العادات والتقاليد ، ومناهج التفكير . ومن المتعلمين
من مرق من الدين ، ومنهم من حاول التوفيق بين الدين
والعلم الجديد ، ومنهم من نبهه البحث الجديد الى اعادة
النظر في التراث القديم لاختيار ما هو أصلح منه ، ومنهم
من اتجه لتحرير القديم مما زيد فيه وابتدع . وليس من
الواجب أن يكون المثال المنتزع من مثال آخر مطابقا له من
جميع الوجوه أو من أكثرها ، بل قد يأخذ المثال بعض
خصائص الأصل في المعنى والصورة ويوجد مثالا آخر
يوافق مزاجه ، ويوافق عقيدته الموروثة ، ويوافق البيئة
التصرف وغير ذلك .

وكما أن معارفنا تأثرت حديثا بمعارف الغرب ، فقد
تأثرت من قبل بما أفاد المسلمون عن غيرهم من علم وفلسفة .
والناظر في علومنا الاسلامية يلمح هذا التأثير في كل شيء :
يلمحه في علم أصول الدين ، وعلم أصول الفقه ، وفي الفقه
نفسه ويلمحه في التفسير ، وكتب شراح الحديث ، وفي كتب
التصوف وغير ذلك .

نعود بعد هذا الى الفصل الثالث من فصول الرسالة ، وقد
قسم الأستاذ الخولي الآثار الناجمة عن الاتصال المادى
والمعنوى قسمين :

(أ) آثار عامة .

(ب) آثار خاصة .

وعد من الآثار العامة : الغرض من سلطة الكنيسة ،
وتحرر العقل البشرى .

واستدل على الأول بخمود الحماس الدينى ، أثر انتهماء
الحروب الصليبية ، حتى لم يعد كافيا لتحريك القلوب ،
وحتى انتهى الأمر بتحديد سلطة الكنيسة .

ومما لا جدال فيه ، أن هذين الأصلين عريقان فى
الاسلام ، فهو دين لا يعترف لأحد كائنا من كان بسلطة دينية
على أحد ، الا ما أعطى للإمام من حق فى المباحات يوجبها أو
يحظرها وفقا للمصلحة العامة ، والا ما أوجبه على العامة
من استفتاء العلماء فيما لا علم عندهم به .

أما العلماء فلهم حق تفسير الكتاب وحق استثمار
الأحكام منه ، ومن السنة المطهرة ، وعليهم العمل بما
اعتقدوه أو ظنوه حكما لله ، لا يجوز لأحد منهم أن يقلد غيره ،
وأن يتنازل عما هداه اليه اجتهاده ، وكلمة الامام الشافعى
فى الأخذ بتفسير الصحابى معروفة « كيف أخذ بقول من لو
عاصرته لحببته » .

وقد أثمر العقل ثمراته التى حفلت بها الأرض فى
ظلال القرآن ، وتحت راية السنة المطهرة . وخلف العلماء
هذا التراث الخالد الذى نعتز به وتمتز به البشرية قاطبة .
وقد يكون الحد من سلطة الكنيسة ، وخمود الحماس
الدينى اثر الحروب الصليبية أثرا من آثار الخيبة والفشل
فى هذه الأعمال الطائشة ، التى ذهبت ضحيتها آلاف من
الأرواح البريئة التى دفعت الى أتون الحرب ، لكن هل يذهب
هذا بآثار اتصال الغربيين بالشرق ، وما شهدوا فيه من حياة
عملية وعلمية ودينية ، تخالف كل ما عهدوا ، وما صور لهم
عن هذا الشرق وأهله ودينه !!

وقد يقال ان تحرر العقل البشرى أثر من آثار العقل ،
نفسه ، فقد خلق حرا طليقا يفضيه أن يقع فى الأسر والحجر ،
ولما طال عليه الأمد فى قيوده لم يستطع الصبر ، فحاول

تحطيم الأغلال والقيود واستطاع بما ألقته الفلسفة أمامه من الضوء أن يفوز ببغيته ، وأن يعود الى طبيعته طليقا حرا • هذا ممكن وقريب جدا • لكن الذى قرب الفلسفة وقدمها هو الاسلام ، فهو بسبيل أن يكون له شأن فى تحرير العقل البشرى فى الغرب ، بعد استعباده العنيف ، واخلاده الى الركود •

وعد الأستاذ الخولى من الآثار الخاصة فكرا بعينها من أصول الاصلاح البروتستانتى منها :

(أ) رفض السلطة الكنسية للبابا والمجامع ، وهذه السلطة تشمل :

١ - مسألة الاعتراف •

٢ - مسألة الغفران : (وهو قائم على أن الأعمال الصالحة تدخر ليعطى منها الغاطثون) •

والاعتراف لرجل الدين حتى تصح التوبة ويمحى الذنب لا شك فى أن الاسلام ينكره اذ أساسه أن الله وحده يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات •

وبيع الغفران كذلك ينكره الاسلام ، ولا يرى أن تزر وازرة وزر أخرى • بل كل نفس بما كسبت رهينة ، وقد ساق الأستاذ فى احدى تعليقاته شواهد كثيرة مما فاض به القرآن الكريم •

هذه الأصول التى وجدت فى الاسلام جاء بها الاصلاح المسيحى ، فهل الاسلام هو الذى قدمها للمصلحين كما يقول الأستاذ الخولى ؟ أو من الممكن أن يكون سببها الرجوع الى المسيحية قبل أن تشيع فيها البدع ، وقبل أن تخلق الكنيسة رسومها التى سيطرت بها على الناس ، وحاطتها بسياج من التقديس ؟

كل هذا ممكن ، ومن المرجح فى مسألة بيع الغفران ان
الاصلاح فيها كان رجوعا الى المسيحية ، واتباعا لنصر الانجيل .
ولكن ما الذى لفت النظر الى الرجوع لمصادر المسيحية
الصحيحة ، أهو العقل وحده أو هو ما قدمه الاسلام من علم
ومعرفة ؟ يستوى الأمر عندى فيه ، ومؤرخ الأديان من حقه
أن يلحظ الصلة وأن تقوى عنده سببية ما قدمه الاسلام .

(ب) الاكتفاء فى النجاة بتصحيح العقيدة ، دون حاجة
الى وساطة الكنيسة بين الله والناس :

وقد ربط الأستاذ الخولى هذه القاعدة بفلسفة الغزالي،
ووجد فى أقلام المؤلفين الأوربيين حلقات ، تكون سلسلة ذلك
الاتصال بالغزالي وفلسفته . والفكرة مرتبطة فى الوقت
نفسه بالقرآن الكريم ذاته ، فهو ملء بتقرير هذا الأصل -
« ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن
فلا كفران لسمعیه وانا له كاتبون » - « ومن يعمل من
الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة
ولا يظلمون نقيرا » . « ان الذين آمنوا والذين هادوا
والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا
فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .
وفى الحديث من قال لا اله الا الله دخل الجنة .

فهذا أصل من أصول الاسلام عرض العلماء لبيانہ ،
ومنهم الغزالي فى فلسفة النفس ، واعتبارها جوهرًا مجردًا
مستعدًا للفيض الالهى .

هذا الأصل وجد فى الاصلاح المسيحى ، والعقل يرشد
اليه . لذلك يصح التساؤل أهو مأخوذ عن الاسلام ؟ أو عن
هدى العقل ، وهدى المسيحية الأولى ؟ ومن الممكن أن يستمر
الأستاذ الخولى على رأيه فى أن الاسلام هو الذى أعان عليه
بما قدمه للعقل من علم ومعرفة ، ومعه مؤرخو الفلسفة الذين
يتبعون الصلة من الغزالي الى لوثر نفسه .

(ج) اعتبار كلمة الله هي الضابط الوحيد ، وبعبارة أخرى جعل الحكم لله وحده :

وقد اتفق المسلمون على أنه لا حاكم إلا الله ، حتى الذين قالوا بحكم العقل قالوا إنه يدرك حكم الله ، ولا ينشئ حكما فالله وحده صاحب السلطان • واتفقوا على أن ما جاء فيه وحي فمرده الى الوحي •

وفي التنزيل الكريم « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب » - « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » - « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » •

فوجوب اتباع الوحي لا يختلف فيه أحد من العلماء ، قديمهم وحديثهم في ذلك سواء • وإنما الخلاف في أمور أقل شأنا من هذا ، مثل أن القياس حجة لأن النصوص لم تشتمل على حكم جميع الأشياء ، أو غير حجة لأن النصوص تشتمل جميع الأشياء • ومثل جواز تأويل ظاهر النصوص وعدم جواره • وليس الظاهرية وحدهم هم المشددون في اتباع النصوص ، وعدم التأويل ، بل لهم أسلاف في ذلك من العلماء فليس مذهبهم جديدا •

هذا الأصل من أصول الاسلام بلا شبهة ، قد وجد في الإصلاح المسيحي البروتستانتى ، وقبل الإصلاح يزمن مبكر • وإذا نحن أمعنا النظر نستطيع ادعاء أن كل من يعترف بالله ورسله ولم تفسد فطرته ، أو تحجب بأغشية الضلال ، يدرك بدهة أن شؤون الآخرة ، وطريق الوصول اليها مما يجب أن تكون الكلمة فيه للوحي ، وقد كانت الأديان قبل طرور الفساد عليها على هذا المبدأ • فالرجوع اليه قد يدون رجوعا الى المسيحية ، أو رجوعا الى مقتضى العقل • لكننا نرجع فنقول أن الاسلام قدم المعرفة ، وقدم أصوله الحققة للفرب • ووجه العقل والوجدان ، وأزال الاغشية عن البصائر ، فمن المحتمل جدا أن يكون له فضل هذا الأصل •

(د) لمن يكون حق تفسير الكتاب ؟ وتتصل هذه المسألة بحركة التوفيق بين الدين والفلسفة .

قد يكون الخلاف فى التفسير ومن له الحق فيه مما وجد عند المسلمين فى زمن مبكر ، فكان هناك من يحاول منع التفسير بالرأى ، وان كانت الغلبة لمن يجيزه للعلماء القادرين عليه كافة .

وقد أقام رجال الكنيسة أنفسهم فى عهد السيطرة مقام المعصوم ، فأجازوه لأنفسهم دون غيرهم ، وجاء رجال الإصلاح البروتستانتي فأجازوه لكل مسيحي .

ومحاولة التوفيق بين الدين والفلسفة وجدت فى الاسلام منذ وجدت الفلسفة عند المسلمين ، وانكار ذلك أيضا وجد عندهم قديما وحديثا ، فالمسلم الفيلسوف ، يرى من الحق عليه ان يحاول التوفيق بين علمه ودينه ، لأنه يرى صحة الامرين . وغير الفيلسوف يرى الحق لدينه فقط ، فينكر ما عداه . والفيلسوف غير المتدين يعد نفسه حرا طليقا لا يبالي ما يخالف الفلسمه ، وهذا امر طبيعي وجد عند المسيحيين أيضا .

وقد أراد الأستاذ الخولى ان يربط ما تم فى الإصلاح البروتستانتي بما هو حاصل فى الاسلام لما عرف من صفة رجال هذا الإصلاح بالفلسفة المعروفة اذ ذاك ، والصلة القوية لهاتيك الفلسفة بالتفكير الاسلامى . وأنا أرى هذا شيئا قد يدون طبيعيا ، اذ لقي المسيحيون من عنت رجال الكنيسة وصلفهم ما يكفى وحده للتورة عليهم ، وتحرر العقل البشرى من هذه القيود .

(هـ) امكان تحول الخبز والخمر فى العشاء الربانى الى جسد المسيح ودمه :

ولعل الانكار فى هذه المسألة لا يحتاج الى شيء أكثر من لفت النظر ، الا أن العقول اذا خدعتها الخوازع اطمأنت الى

مالا يحتاج ابطاله لكبير عناء . والأستاذ الخولى قد نظر فى تاريخ المسألة ، ووجد أن فكرة الاصلاحيين فى هذا التحول مأخوذة من فكرة فلسفية سابقة وفقت بين العقل الذى لا يطمئن الى هذه الاستحالة ولا يسلم بها فى سهولة ، وبين الدين الذى يقرر هذه الاستحالة ، فانتهدت الى وجود المسيح بجانب الخير والنيبذ ، دون استحالتهم حقيقة . ورأى أن الفلاسفة من أصحاب هذه الفكرة ربما تأثروا بالحل الاسلامى الذى انتهى اليه الموفقون بين الدين والفلسفة فى مسألة الأسباب والمسببات فقررُوا ان المسببات توجد عند أسبابها ولا توجد بها .

ولعل الشبه بين المسألتين مما فيه محل للنظر ، فانى لا أشعر بقوته شعور الأستاذ الخولى بها .

(و) الثورة على الأصنام والصور وتحطيمها :

وربط هذه المسألة بقواعد الاسلام ، وملاحظة تأثيره فيها مما يطمأن اليه .

والآن وقد فرغت من تلخيص القسم الثالث من الرسالة ، لا يجوز لى أن اختم القول دون اظهار اعجابى بسعة اطلاع الأستاذ الخولى ، وقوة صبره على الدرس والبحث ، وقوة استنتاجه .

والأستاذ الخولى رجل يحب الجدل ، ولا يقتنع الا حيث يصح الاقتناع وهذا الشأن منه هو الذى حبيب الى منازعته فى الراى .

وان ما قاله فى بحثه من أنه لا يدعى أن صلة الغرب بالشرق هى السبب الوحيد فى الاصلاح المسيحى لكفيل بان يرد عنه النقد او يخفف وقعه .

واذا علمنا أن الموضوع لم يحاول من قبل تملكنا الاعجاب بعمله .

وهذه الدراسة التي حاولها الأستاذ في هذه المسألة ،
خليقة بأن يقتدى بها علماء الدين في دراسة الأديان ، دراسة
مقارنة • فهي تعين على أداء رسالة الاسلام وتوسع أفق العالم
المتدين ، وتزيده بصيرة في دينه ، وتقديرا لعلماء السلف
من المسلمين • والله ولى التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل %

محمد مصطفى المراغى

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة

١ - البحث العلمى النزىه ، عن اتصال الأديان وآثار ذلك الاتصال ، خطوة صالحة ، فى سبيل السلام العالمى ، والاخوة الانسانية ، التى سمت اليها الروح الدينية العالية ، وحلمت بها الفلسفة منذ شروق شمس الحياة الفكرية ، ثم لا تزال تتطلع اليها العناصر الكريمة فى الحياة العاملة •

هو بحث يوسع أفق المتدينين ، ويدفعهم من التدين الى أظهر معانيه ، على حين هو فى الوقت نفسه ، واجب علمى لخدمة الحقيقة ، يتولاه الباحثون فى تاريخ الأيان ، ومقارنتها •

٢ - والاتصال بين المسيحية والاسلام فى الشرق كان موضوع دراسات كثيرة (١) ولم يكن الاتصال - غير القصير - بينهما فى الغرب موضوعاً لمثل تلك الدراسات •

(١) من مظاهر ذلك : ما فى دراسات العقائد ، ومجادلات أهل الدين ، ومنه ما فى البدع والزيادات التى تأثر بها كل قوم من مخالطهم ، ومنه ما فى دراسة الحياة الاجتماعية للأقطار التى جاور فيها المسلمون النصارى ، وما تأثر به هؤلاء وأولئك ، وفى كل هذه أبحاث متفرقة يمكن تتبعها •

والاصلاح البروتستانتى أكبر حادث متأخر فى حياة
المسيحية بعامة ، وأكبر حادث فى حياتها الأوروبية بخاصة .
ومن أجل ذلك تسهل ملاحظة هذا الاتصال وآثاره فيه ،
ولهذا اخترته موضوعا للدراسة ، قصدت فيه الى رسم الخطوط
الأساسية ، والصورة الاجمالية لهذا الاتصال ، وذلك
التفاعل (٢) بين الدينين الكبيرين ، تمهيدا لدرس أعمق من
ذلك ، يتلوه ان شاء الله ، فى رعاية دائمه لحقوق البحث
التاريخى النزىه ، المتصدى لطلب الحقيقة البريئة الرزينة .

٣ - وانما أقصد الاسلام من حيث هو عقيدة لمعتقديه،
ثم أعمال ومظاهر دينية فى حياتهم ، وكذلك من حيث هو
فكر وآراء عند دارسيه من المتكلمين ، وفلاسفة المسلمين ،
فلكل ناحية من هذه النواحي آثارها .

وأقصد بالاصلاح المسيحى ، تلك الأعمال المادية
والعقلية ، التى بذلت فى سبيل تغيير نظام الكنيسة
الرومانية ، خلال قرون طويلة ، وأجيال متعددة ، حتى جاء
« مارتن لوتر » ذلك الرجل الشجاع الذى صير الاصلاح
حقيقة واقعة ، وعملا مقروا . فهذا هو الوضع التاريخى
الصحيح لحركة الاصلاح .

٤ - ومنهجى فى ذلك الدرس طبعى ، مرتب على أن أبحث :

(١) عن الاتصال المادى بين الاسلام والمسيحية فى
أوروبا . ثم :

(٢) عن الاتصال المعنوى بين الاسلام والمسيحية فى
أوروبا . ثم :

(٣) عن آثار ذلك الاتصال فى أفكار الاصلاح المسيحى،
وآراء دعاة ، خلال تلك الأزمنة الطويلة .

(٢) عبرت بالتفاعل وفى النفس ان شاء الله أن أعيد الى دراسة ما تأثرت به الحياة
الاسلامية الدينية فى الغرب ، والفرقت به عن نظيرتها فى الشرق .

الفصل الأول

الاتصال المادى بين الدينين

١ - أظهر مظاهر هذا الاتصال بين الدينين ، تلك المواجهة الحربية بين أخلاط أمم الشرق ، ومختلف عناصر الغرب ، المواجهة التى سعى فيها الشرق حيناً الى الغرب ، والغرب آناً الى الشرق .

فمنذ منتصف القرن السابع الميلادى ، خرج الاسلام يواجه المسيحية على شواطئ البحر الأبيض المختلفة ، فما زال حتى رده يحيرة اسلامية أو تكاد ، فاحتكم فى شواطئه الشرقية والشمالية والجنوبية ، وألقى جراحه غرباً بالأندلس ، واستقر فى تلك المواطن أزمنة تختلف طولاً وقصراً . توطن فى أسبانيا وجنوبى فرنسا ، وإيطاليا ، وساد سائر جزر ذلك البحر ، وكثرت مناوشاته للقسطنطينية فى المشرق ، وامتد فى فترات متقطعة الى غير ذلك من الغرب ، ففتح المسلمون نابل (نابولى) وجنوة (جنوة) (١) ، وتغلبوا على رومية فى القرن التاسع ، حتى استنقذها البابا (حنا) بوعدهم جزية كبيرة ، واستنجد عليهم ملكى فرنسا وألمانيا . هذا الى غارات لهم على مختلف المدن فى أنحاء إيطاليا (٢) . كما امتلكوا بعض شواطئ نهر ريدونه

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٩٩ (ط - مصر) .

(٢) سيدير . Sedeillat : خلاصة تاريخ العرب ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(الرون) ، ووصلوا الى لودون (ليون) (٣) ، وامتلكوا
صخرة ابنيون ، (افينيون) (٤) . وأقاموا بها بضع سنوات ،
وتلك الصخرة هي التي كانت فيما بعد مقر البابوية بضع
عشرات من السنين في القرن الرابع عشر ، وكانت منطقة
«الالبيجوا» التي تنسب اليها شيعة مسيحية شهيرة ، ميدان
غاراتهم (٥) ، وتوطنوا الميم (سبتمانية) مما يلي جبال
البرتات من جنوبي فرنسا ، واذا ما خرجوا منه لم يلبثوا
أن يعودوا اليه (٦) . وكذلك ظلوا في بعض جهات جنوبي
فرنسا من أواسط القرن الثامن الميلادي الى القرن العاشر
على رأى بعض المؤرخين (٧) .

٢ - واتصلت بذلك الفتح المنظم حركات عصايات
اسلامية قوية استوطنت فراكسينت ، على حدود فرنسا
وايطاليا ، ولبثت في تلك المنطقة وما حوالها حتى القرن
العاشر الميلادي ، واحتلت مضائق الألب بحيث وقعت طرق
الاتصال بين فرنسا وايطاليا في قبضتهم (٨) ، بل عاهدوا
على الاذن بالمرور منها معاهدات منظمة ، وهكذا أقاموا في
سافواي ، وجالوا في جميع أنحاء سويسرا بلا معارض (٩) ،

(٣) رينو M. Renaud كتاب غارات العرب على فرنسا ، ومن فرنسا الى
سافواي ، وبيسوت وسويسرة في القرن الثامن والتاسع والعاشر من التاريخ المسيحي ،
حسب روايات المؤرخين المسلمين والمسيحيين . وهو أحد الكتابين اللذين ترجمهما الى العربية
الأمير شكيب أرسلان ، ونشرا تحت اسم تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطاليا
وجزائر البحر المتوسط : ص ٧٨ عربية .

(٤) رينو : المصدر السابق ص ١٠٤ .

(٥) رينو : المصدر السابق ص ٧٣ .

(٦) سيديو : ص ١٥٧ - ١٥٨ .

(٧) رينو : المصدر نفسه من تعليق المؤلف ص ١١٣ - ١١٤ .

(٨) رينو : المصدر نفسه ص ١٦٧ ، سيديو : المصدر نفسه ص ١٦٢ .

(٩) رينو : المصدر نفسه ص ١٧٦ ، سيديو : المصدر نفسه ص ١٦٢ .

وانتهى بهم الأمر الى استيطان هذه المناطق من أوروبا والاستقرار فيها، فزرعوا وعمرُوا، وتزوجوا ونسلوا (١٠) -

ثم جاء دور الغرب فى أعقاب ذلك توا ، فرمت أوروبا الشرق بأفلاذ أكبادها فى الحروب الصليبية التى دامت قرونا ، وأسس الصليبيون على الشواطىء الشرقية للبحر الأبيض ، أمارات أوربية مسيحية ، واستولوا أحيانا على بيت المقدس ، واتصلوا فى ذلك كله بقلب الشرق ، من مصر وسوريا ، وأطراف العراق وآسيا الصغرى ، فعرف الغرب الشرق فى دياره ، بعد ما قدم الشرق نفسه الى الغرب فى داره .

ويتلو هذا الدور اتصال الصراع بين الاسلام والمسيحية على حكم أسبانيا حتى القرن الخامس عشر الميلادى ، عهد الإصلاح المسيحى الذى نتحدث عنه .

هذه الحروب المتداولة ، وذاك الاستعمار من الشرق للغرب ، ومن الغرب للشرق ، كل أولئك قد تهيأت به فرص عملية متنوعة للاتصال بين الدينين - وما نحن أولاء نشير الى بعض ذلك :

٤ - فى هذه الحروب ، وتلك المصادمات المختلفة ، كانت تؤخذ الأسرى من الجانبين ، فيطول مقامهم أحيانا الى أن يقدوا ، ويعودوا الى بلادهم السنة تعريف بما رأوا وسمعوا ، بل بما تأثروا به من المؤثرات الفكرية والدينية والعملية للأمم التى خالطوها - ولقد عرفت أوروبا من هؤلاء الأسرى أسير قرصنة شهيرا ، هو الذى دعوه «ابون الأفريقى» وما هو الا أبو على الحسن بن محمد الوزان الفرناطى الفاسى الذى

(١٠) فرديناند كئلر Ferdinand Keller : كتاب لغارات العرب على سويسرا فى أواسط القرن الماشر ، وهو الكتاب الثانى من الكتابين اللذين ترجمهما الأمير شكيب تحت عنوان « غزوات العرب فى فرنسا ٠٠٠ » : ص ٢٥٨ ، وسيدىو : الخلاصة ص ١٦٢ .

أسره القراصنة ، فى عودته من لدن السلطان سليم العثمانى ، وقد كان سسفر لديه عن ملك فاس مهنئاً له بالتغلب على المماليك فى مصر والشام وفلسطين وبلاد العرب ، وأهداه القراصنة الى البابا ليون العاشر ، فحبسه فى قلعة القديس أنجلو ، برومية ، سنة كاملة ، حتى تعلم المسيحية على يد ثلاثة أساقفة ، وعمد بعد ذلك فى كنيسة القديس بطرس ، بيد ليون العاشر نفسه ، الذى أعطاه اسمه « حناليون » . ومن هنا عرف باسم ليون الافريقى ، وظل بايطاليا عهداً عاد بعده الى أفريقية وعاد الى اسلامه ، وهناك كتب الوزان كتباً كثيرة قيمة ، نذكر من بينها مما يعنينا : كتابه عن « القانون والعقيدة الاسلامية (١١) » . وكان أسر الوزان وحياته فى أوربا اiban ثورة الاصلاح بين سنة ١٥١٦ - ١٥٢٩ م . على أنى انما ذكرته مثالا فحسب ، لبيان ما قد يكون من التأثير والتأثير الدينى بالاسرى ، والنازليين من أهل الدينين فى الشرق والغرب ، لا لأنا ندعى له بنفسه أثراً خاصاً فى حياة الاصلاح المسيحى .

٥ - وما أن يتمادى الوقت حتى ترى الحرب نفسها أداة اتصال مباشر بين المسيحية بأهلها فى الغرب ، والاسلام بأهله فى تلك المناطق ، اذ نشهد صفوفاً من المسيحيين الأوربيين يقاتلون تحت اللواء الاسلامى : اما عن طريق جعل الأسارى المسيحيين وسبيهم جنوداً ، واما عن طريق تقديمهم الى تلك الخدمة عن طيب خاطر (١٢) ، فى جيوش

(١١) دائرة المعارف الايطالية الجديدة مادة ليون Leone . وقد كتب الأستاذ أبو عبد الله محمد المهدي ابن الشيخ الحجوى الفاسى بحثاً عن الوزان قدمه لمؤتمر المستشرقين بفاس سنة ١٩٣٣ كما أفردت حياته بالمؤلفات فى الايطالية .

(١٢) رينر . المصدر نفسه ص ٢١٢ .

المسلمين بالأندلس ، بل جيوشهم فى بلاد المغرب أيضا ،
 اذ يحدثنا ابن خلدون فى المقدمة (١٣) أنه « نظرا لضرب
 المصاف وراء العساكر ، وتأكدته فى قتال الكر والفر ،
 صار ملوك المغرب يتخذون طائفة من الأفرنج فى جندهم ،
 واختصوا بذلك ، لأن قتال أهل وطنهم كله بالكر والفر » *
 وكانت جيوش ملوك الأفرنج أيضا قد تنتظم جندا من
 المسلمين : اما عن طريق تلك الغلبة ، كالذى يروى من
 اتخاذ «رجار» ملك صقلية لجملة من العبيد المسلمين ، وعليهم
 قائد منهم ، كما كان وزراؤه وحجابه الفتيان ، الذين له
 منهم جملة كبيرة ، هم أهل دولته (١٤) * واما على سبيل
 الاستعانة بهم كما يروى أن فردريك الثانى هو هنشتاوفن
 امبراطور الدولة الرومانية المقدسة الآتى ذكره ، قد اتخذ
 فى جيشه الجند المسلمين (١٥) ، فكانت صفوف الجند فى
 الغرب مجالا لالتقاء أهل الدينين ومخالطتهما ، سواء فى ذلك
 الجيوش الاسلامية ، والجيوش المسيحية * .



٦ - ونلمح فى تاريخ القتال بين أهل الدينين ، ضربا
 من الدعاية السياسية التى تمس النواحي الدينية ، اذ يروى
 لنا تبادل المتقاتلين نشرات للدعاية الموهنة للقوة المعنوية ،
 وردودا على تلك النشرات للغرض عينه ، ففى حروب نقفور

(١٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٣٨ (ط . مصر - عبد الرحمن محمد) .

(١٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ٣٠٨ ط . مصر -

ونقرأ فى تراث الاسلام : ج ١ ص ٨ من الترجمة العربية ما نصه : « ونرى عددا
 من حكام قشتالة يحيطون أنفسهم بعلماء المسلمين ، ويستخدمون مهندسين مسلمين ،
 ويستمعون الى موسيقيين مسلمين ، ويستمتعون بغير ما فى الثقافة الاسلامية » . وفى
 ص ٢٣٢ منه ما نصه : « على أن المفيرين النورمانديين والصقليين قد أحاطوا العلوم العربية
 برعايتهم وأخذوا بالعادات الاسلامية أخذًا شاملا » ، كما نقرأ فيه أيضا ج ١ ص ٥٤ :
 « ان ألفونس السادس كان بلاطه مسيحيا اسما ، وأنه أعلن نفسه امبراطور القديسين » .
 (١٥) روى ذلك الأمير شكيب أرسلان فى تعليقاته على ترجمة كتابى : ريتو وكللر .
 وكرره فى ثلاثة مواضع ص ١٤١ ، ١٥٤ ، ١٧٤ . وقال الأستاذ امرنست باركر فى كتاب
 تراث الاسلام ص ١٣٥ ج ١ من الترجمة العربية الحديثة « ان فردريك الثانى استخدم
 جيشا عربيا ضد البابا » . وفى ج ٢ من تراث الاسلام ص ٣٣ تعلية ٢ نقلا عن مدام ديغونشير
 ذكر قلعة « لوسيرا » التى اتخذ فيها فردريك الثانى مسلحة من الجنود العرب » .

فوقاس الثانى (١٦) امبراطور بيزنطة ، مع المسلمين - فى القرن الرابع الهجرى - أرسل الروم الى جيش المسلمين قصيدة عربية فى ٥٤ بيتا (١٧) ، يفخر فيها تقفور بماضى انتصاراته ، ويعلن عزمه على طرد العرب الى الحجاز ، ويعرض لنقد الحكومة الاسلامية اذ ذاك ، بتغلب الديلم عليها ، الى نحو هذا من التوهين لنفسية غزاة المسلمين .

وقد تولى الرد الاسلامى على هذه القصيدة ، الفقيه الشافعى العظيم محمد بن على بن اسماعيل الففال الحبير انتاشى ، اذ كان بين جنود الجيش الاسلامى ، فتظم قصيده فى (٧٤) بيتا ، فيها الى جانب السياسة امور دينيه عن خطأ المسيحيين فى اعتمادهم ، واضطراب اناجيلهم ، وما الى هذا (١٨) .

فمثل هذه الدعايات التى يقصد بها الفت فى عضد الجيوش ، مما يقع بين المتقاتلين ، وليس من البعيد أن تكون قد تكررت على هذا الأسلوب الشعرى أو غيره بين المسيحيين والمسلمين فى الشرق والغرب ، ومست قضايا وأصولا دينية ،

(١٦) من الطريف ، ونحن يصاد الحديث عن الاتصال الدينى بين المسيحية والاسلام ان تذكر الرواية الاسلامية عن أصل هذا الامبراطور البيزنطى ، فقد جاء فى الكامل لابن الاثير . ج ٨ ص ٢٠٠ ط مصر . ما نصه : - « ولم يكن - أى تقفور - هذا نصرا الى الأصل ، وإنما هو من ولد رجل مسلم من أهل طرسوس يعرف بابن الققاس ، تنصر وكان ابنه هذا شهيدا شجاعا حسن التدبير لما يتولاه ، فلما عظم أمره ، وقوى شأنه قتل الملك الذى كان قبله ، وملك الروم بعنه ، وجعل تقفور همته قصد بلاد الاسلام والاستيلاء عليها » ا هـ يلفظه .

ولست آقف هنا لتحقيق هذا ، وإنما اكتفى بما فيه من اشارة الى المصادر المختلفة للاتصال بين الدينين ، والتمهيد القوى للتبادل الفكرى .
وقد حكم تقفور هذا من سنة ٩٦٣ م - سنة ٩٦٩ م .

(١٧) منها نسخة خطية فى جزء صغير بمكتبة فيفا ، تزيد أيناها عما أورده صاحب طبقات الشافعية ، ومعها رد الشيخ الففال كما ساقه صاحب الطبقات .

(١٨) تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج ٢ ص ١٧٩ وما بعدها . ط مصر - وفى ص ١٨٤ من هذا الجزء : أن ابن حزم الظاهرى قد أجاب عن هذه القصيدة التقفورية بقصيدة أخرى فى (١٣٧) بيتا ساقها السبكي أيضا بعد ما قال « وكأله - ابن حزم - لم يبلغه جواب الففال » - وسنشير الى هذا الرد فيما يلى فقرة (٧) .

اذ كانت الاعتبارات الدينية هى التى تسيطر على الحياة ،
وتسود العواطف فى تلك الأعصر .

٧ - ونلاحظ أن تلك الحروب كانت تخلق ما نستطيع
أن نسميه باصطلاح هذا العصر « نقطة دينية » فى الانحاء
المسيحية كالنقط العسكرية للدول القوية ، اذ نجد الأخبار
عن مسجد اسلامى بالقسطنطينية يظهر أن المسلمين قد
أنشئوه فيها منذ عصر مبكر ، أيام تردددهم لغزوها فى القرن
الأول الهجرى ، اذ يذكر ابن حزم فى رده على قصيدة نقفور
السابقة مسجدا قديما انشأه مسلمة بالقسطنطينية فيقول :

ومسلمة قد داسها بعد ذا كم
بجيش لهزم كالليوت الضراغم
واخدمكم باندل مسجدا الذى
بنى فيكموا فى عصرنا المضادم (١٩)

وغزر مسلمة بن عبد الملك هذا كن فى اواخر القرن
الأول الهجرى (٩٨ هـ - ٧١٦ م) .

فلعل هذا المسجد ظل قائما بالقسطنطينية حتى كانت
عمارته والعناية به ، مما يدخل فى تنظيم العلاقة بين
المسلمين والروم الشرقيين اذ نقرأ أنه فى سنة ٤٤٠ هـ
١٠٤٨ م بعث ملك الروم يطلب الهدنة من طغرلبيك ،
وهاداه وعمر مسجد القسطنطينية ، وأقام فيه الصلاة ،
والخطبة لطغرلبيك (٢٠) .

وفى سنة ٥٨٦ هـ ١١٩٠ م . وفى كتاب ملك الروم
بالقسطنطينية يخبر بوصول المنبر من عند السلطان ، وكذلك
الخطيب والمؤذنون والقراء ، وأن الخطبة أقيمت بالجامع
القديم بالقسطنطينية للخليفة الفاصر لدين الله (٢١) .

(١٩) السبكي : طبقات الشافعية ج ٢ ص ١٨٥ ط - مصر .

(٢٠) تقي الدين المقرئى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٢٢ ط .

مصر سنة ١٩٣٤ .

(٢١) المصدر السابق : ج ١ ص ١٠٤ ط - مصر .

ويبدو أن هذه النقطة الاسلامية لم تكن مسجدا فحسب ، بل كانت جالية اسلامية تنزل القسطنطينية قبل فتحها العثماني ببضعة قرون ، اذ تجد أنه في سنة ٥٩٢ هـ ١١٩٥ م ورد كتاب ملك الروم يتضمن أن كلمة الروم قد اجتمعت عليه ، وأنه أحسن الى المسلمين ، وأمرهم بإقامة الجامع ، فأقيمت فيه يوم الجمعة الصلاة مع الخطبة ، وأنه غمر جانبا منه ، كان انهدم ، من ماله ، فتمكن من في القسطنطينية من المسلمين من اقامة الجمعة والجماعة بها (٢٢) .

هذا هو ما دعوته النقطة الدينية في بلاد مسيحية ، وما رأينا أن تأمينه يدخل في حساب العلاقات السياسية ، ومن المحتمل أن تكون قد وجدت نقط أخرى ، ومعاقل دينية من هذا القبيل في غير القسطنطينية . وكان لها نصيبها في وصل ما بين الاسلام والمسيحية في الغرب وتعریف أحدهما بصاحبه .

★★★

٨ - وتلك الصلات الحربية والسياسية تحوج الى تبادل الوفود بين الجيوش والحكومات لعقد الهدنة ، وتقرير الصلح ، وتوطيد العلاقات ، وفي هذه الوفود نرى نزوعا خاصا من المسلمين والمسيحيين ، الى اختيار رجال دينيين : يصمدون للمناقشات والمجادلات الاعتقادية ، التي كانت تجرى عند التقابل ، حتى في الحفل الرسمي الذي يقام لاستقبال السفير الوافد ، وشاهد هذا من الجانب الاسلامي ، ما نراه في اختيار مثل القاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلائي (٤٠٣ هـ) للسفارة بين المسلمين والروم الشرقيين (٢٣) . وفي الغرب نرى « أوتون » ملك جرمانيا في القرن العاشر ، يعنى بأن يختار عالما لاهوتيا يعتمد عليه في المناقشة الدينية مع المسلمين ليعبثه الى قرطبة ، فيختار

(٢٢) المصدر السابق : ج ١ ص ١٢٩ ط . مصر .

راهبا من رهبان دير جورز Gors بقرب ميتز ، اسمه « جان » عرف بضلوعته فى اللاهوت ، وقد حاول فى تلك البعثة أن يقنع الخليفة « الناصر » الأندلسى باعتراف المسيحية . كما تشير الى ذلك الرواية الأوروبية (٢٣م) .

٩ - ومن آثار ذلك الاتصال المادى ان الاستعمار الاسلامى اذا ما انحسر عن الأقطار الغربية ، ترك فلولا بل جموعا تطويها اللهجة الفاسمة من الغلبة السياسية والحربية ، فتليها فى المسيحية الغربية ، عناصر تلقيح ، وطرق تعريف بالاسلام ، وهكذا كان الأمر عندما استردت جزر البحر الأبيض من الاسلام ، كقبرص ، وأقريطش ، ورودى ، وصقلية ، وغيرها من مناطق الاستعمار الاسلامية فى أوربا ، فتتصر أهلها وبقوا مسلمين مغلوبين . عبيدا أو كالعبيد .

(٢٣) ذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٣٧١ هـ . أنه : فيها ارسل عضد الدولة القاضى أبابكر محمد بن الطيب الأشعرى المعروف بابن الباقلانى الى ملك الروم فى جواب رسالة وردت منه .

والى الثانى يعطى ما وصلنا من مناقشات القاضى لرجال للمسيحية من الروم : دخل القصر يوما فرأى عند الامبراطور بعض مطارنته ورهبانه ، فقال له مستهزئا به ، كيف أنت وكيف الأهل والأولاد ؟ فتعجب منه الامبراطور ، وقال له : ذكر من أرسلك فى كتاب الرسالة ، أنك لسان الأمة ، ومقدم على علماء الملّة ، أما علمت أنا ننزه هؤلاء عن الأهل والأولاد ؟ فقال القاضى أبو بكر أنتم لا تنزهون الله سبحانه وتعالى عن الأهل والأولاد ، وتنزهونهم فكان عندكم أقدم وأجل وأعلى من الله سبحانه وتعالى .

وقصد الامبراطور يوما توبيخه فقال له : أخبرنى عن قصة عائشة زوج نبيكم وما قيل فيها ؟ فقال له القاضى أبو بكر : هما اثنتان ، قيل لهما ما قيل ، زوج نبينا ، ومريم بنت عمران ، فأما زوج نبينا فلم تلد ، وأما مريم فجاءت بولد تحمله على كتفها . وكل قد يراها الله ما رميت به .

وكان القاضى الباقلانى مبعوثا سيمانيا ، سريع الخاطر لبقا ، رزوا أنه فى هذه الرسالة عرف الامبراطور خبره ، ومحلّه من العلم وموضع ، فاعتقد أن القاضى لن يكفر له اذا دخل عليه ، كما جرى رسم الرعية أن تقبل الأرض بين يديه ، فاحتالوا لذلك بأن جعلوا الاستقبال فى حجرة ، لها باب لطيف ، لا يمكن أحدا أن يدخل منه الا راكما ، وجعلوا السريز وراء هذا الباب ، ليدخل القاضى راكما ، ليكون ذلك هوشا من تكفيره . فلما ذهب القاضى سار حتى وصل الى المكان ، فلما رأى فطن الى القصة ، فأدار ظهره ، وحتى رأسه راكما ودخل من الباب ، وهو يمشى الى الخلف ، وقد استقبل الملك بظهوره ، حتى صار بين يديه فرفع رأسه فنصب ظهره ، وأدار وجهه ، وكذلك كان سريع الخاطر دينيا وعمليا . رحمه الله .

ابن عساكر : تبين كذب المقتري ٢١٨ - ٢١٩ ط دمشق .

(٢٣م) رينو : المصدر السابق - ص ١٧٧ من الترجمة العربية .

وها هو ذا الرحالة الاسلامي الكبير أبو الحسن محمد بن أحمد ابن جبير ، يحدثنا عن قصة لأحد فقهاء حاضرة جزيرة صقلية بعد استيلاء النورمنديين عليها ، في معرض سوء حالهم الدينية اذ ذاك ، فيقول : « * * » فمنها قصة اتفقت في هذه السنين القريبة لبعض فقهاء مدينتهم التي هي حاضرة ملكهم الطاغية ، ويعرف بأبن زرعة ، ضفطته العمال بالمطالبة حتى اظهر فراق دين الاسلام ، والانغماس في دين النصرانية ، ومهر في حفظ الانجيل ، ومطالعة سير الروم ، وحفظ قوانين شريعتهم ، فعاد في جملة القسيسين الذين يستفتون في الأحكام النصرانية ، وربما طرأ حكم اسلامي فيستفتي ايضا فيه لما سبق من معرفته بالأحكام الشرعية ، ويقع اوفوف عند فتياه في كلا الحكمين » (٢٤) .

وستسمع فيما بعد - الفصل الثاني فقرة ٨ - أن راهبا كان مسلما ثم تنصر ، قد ساعد في ترجمة القرآن الى اليونانية (٢٥) ، وأن رئيس حصن مستعمرة فراكسينت الاسلامية التي سبقت الاشارة اليها قد تنصر حين هزم ، وتنصر معه آخرون ، كما بقي بعض من معه مسلمين أرقاء في تلك المنطقة (٢٦) .

وقد كان من آثار ذلك أن وجدنا أقليات اسلامية في أنحاء مختلفة من أوربا ، وشهدت بذلك آثار غربية محفوظة ، ففي فرنسا كان من المسلمين ، في القرن الثالث عشر الميلادي ، عدد يهتم به مجمع الأساقفة في « طركونة » بأسبانيا سنة ١٢٣٩ م . فيصدر أمرا بإجبارهم على اتخاذ زى خاص بهم (٢٦م) . كما كان منهم أرقاء مستعبدون ، يفرون من

(٢٤) رحلة ابن جبير : ص ٣٢٤ - ٣٢٥ ط . * بمصر .

(٢٥م) الدرر النفيسة في شرح حالة الكنيسة ، المترجم عن اليونانية من مختصر تاريخ استفانوس قوميطن ، المقتطف من تاريخ ملاتيوس مطران أثينا الكنايسي : ط . * اورشليم سنة ١٨٦٧ م .

(٢٦) رينو : المصدر نفسه - ص ١٨٨ - ١٨٩ من الترجمة العربية .

(٢٦م) رينو : المصدر نفسه ص ٢٢٧ - ٢٢٨ من الترجمة .

عذاب الاضطهاد الى المسيحية ، يعتنقونها ، فيعذبون ليحال بينهم وبين اعتناق المسيحية ، أو يستمر ارهاقهم بعد اعتناقها يأشد ما يمكن ، حتى أصدر البابا كليمنضوس الرابع سنة ١٢٦٦ م منشورا عنقه به رئيس دير لتعدييه رجلا مسلما غنيا كان قد تنصر ، فزعم هذا الرئيس أن تنصره غير حقيقي ، توصلا بذلك إلى ضبط أملاكه وحرمان أولاده منها (٢٧) .

ويتحدث حتى اليوم عن أسر في جنوب فرنسا لا تزال تحمل اسم « سارازان » ومن بين رجالها من له شأن علمي (٢٧) م ، وما ذلك الا أثر لما كان من تنصر عدد كبير من المسلمين في فرنسا ، كما كان عدد الفرنسيين الذين اتخذوا الاسلام ديناً أكبر ممن تنصر (٢٨) .

ويتصل بهذا ما يحدثنا به ياقوت في معجم البلدان عن وجود مسلمين في بلاد « هنجاريا » - المجر - التي يدعوها « الهنكر » (٢٩) في القرن الثالث عشر الميلادي .

(٢٧) رينو : المصدر نفسه ص ٢٢٧ - ٢٢٨ من الترجمة العربية .

(٢٧) تعليق للأمير شكيب أرسلان على ترجمته لكتاب رينوس ٢٢٨ ، يذكر فيه وجود تلك الأسر في فرنسا وفي سويسرا أيضا ، ويسمى منها العالم الفيلسوف أبو زيد (Abauzil) للعاصر لغولتير وروسو ، وتيوتن ، وسديهم جميعا .

(٢٨) رينو : المصدر نفسه ص ٢٢٨ - ٢٢٩ من نص المؤلف .

(٢٩) في مادة باشفرد - ج ٢ معجم البلدان لياقوت يقول : « ... وأما أنا فإني وجدت بمدينة حلب طائفة كثيرة يقال لهم الباشفردية شفر الشعور والوجوه جدا ، يتفقهون على مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه ، فسألت رجلا منهم استعملته عن بلادهم وحالهم . فقال : أما بلادنا فمن وراء القسطنطينية ، في مملكة أمة من الافرنج يقال لهم « الهنكر » ونحن مسلمون رعية للحكم ، في طرف بلاد نحو ثلاثين قرية ، كل واحدة تكاد أن تكون بليدة ، الا أن ملك الهنكر لا يمكننا أن نعمل على شيء منها سورا خوفا من أن نعلم عليه ، ونحن في وسط بلاد النصرانية ، فشماليها بلاد الصقالبة ، وقبلتها بلاد البابا ، يعني رومية ، والبابا رئيس الافرنج ، هو عندهم نائب المسيح ، كما هو أمير المؤمنين عند المسلمين ، يغذ أمره في جميع ما يتعلق بالدين في جميعهم . قال : وفي غربنا الأندلس وفي شرقنا بلاد الروم ، قسطنطينية وأعمالها ، قال : ولساننا لسان الافرنج ، وزينا زيهم ونخدمهم في الجندية ، ونغزو معهم كل طائفة لأنهم لا يقاتلون الا مغالبي الاسلام ، فسألته عن سبب اسلامهم مع كونهم في وسط بلاد الكفر ، فقال : سمعت جماعة من أسلافنا يتحدثون أنه قدم الى بلادنا منذ دهر طويل سبعة نفر من المسلمين من بلاد بلغار ... قلت =

١٠ - تلك مظاهر اتصال مادية ترجع إلى الحرب بين الشرق والغرب ، وما يتصل بها من وفادة وما إليها .

وتمت أعمال سلمية لها أهميتها في مثل تلك الصلات بين الدينين ، فرجال الحكم أنفسهم حين لا يحاربون ، تدفعهم مطالب السياسة إلى توثيق الصلات بأسباب التودد المختلفة ، ومن بينها ما يتخطى حدود الاختلاف الديني ، ويهيئ التفاهم القريب ، كالمصاهرة ، فنرى في الشرق الأمبراطور - كانتا كوزينو - الذي سنعرف أنه ترهب وترجم القرآن - يصهر إلى السلطان العثماني أورخان ، ويحمل إليه ابنته « تيودورة » التي تقيم على دينها في قصره (٣٠) .

ونرى في الغرب نفسا من أولى الأمر في الأندلس ، يتزوجون أميرات غربيات ، فقد تزوج عبد العزيز بن موسى ابن نصير أرملة الملك لذريق (٣١) ، كما تزوج زياد بن النابغة التميمي إحدى بنات ملوك الأندلس (٣٢) ، وتزوج

« وهو يذكر في صدر المادة خبر بعثة الخليفة المقتدر بالله إلى ملك الصقالبة الذي كان قد أسلم هو وأهل بلاده ليغضب عليهم الخلع ويعلمهم الشرائع الإسلامية - وسكنوا بيننا وتلطفوا في تعريفنا » الخ ما يذكره من زعيم وعاداتهم وبعد بلادهم من ٢٧ و ٢٩ ج ٢ ط .
مصر .

هذا والاسلام اليوم في المجر قليل مستضعف ، لا يكاد يوجد الا بين نفر من متخلفي
الالبانيين ونحوهم في تلك البلاد .

(٣٠) روبرتسون وليام (R. Witiam) مقدمة تاريخ شارلكان - الترجمة العربية
ص ٣٧٤ .

(٣١) ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٨ ط مصر . ويقال ان عبد العزيز سماها زهرة بنت عيسى يريد أنها وودة للمسيحيين . وفي هذا الزواج نفسه ظاهرة واضحة للتأثير ، لقد ذكر ابن الأثير أن زوجة عبد العزيز حظيت عنده ، وغلبت عليه فحملته على أن يأخذ أصحابه ووعيته بالسجود له اذا دخلوا عليه ، كما كان يفعل زوجها وذريق . فقال لها ان ذلك ليس في ديننا ، فلم تزل به حتى أمر ففتح باب قصر لمجلسه الذي كان يجلس فيه ، فكان أحدهم اذا دخل منه طامًا رأسه فيصير كالراكم فرشيت به ، وصار كالسجود عندها . فقالت له الآن لحقت بالملوك ، وبقي أن أعمل لك تاجا مما عندي من الذهب واللؤلؤ . فلبى فلم تزل به حتى فعل ، فأنكشف ذلك للمسلمين ، فليل تنصر ، وفطنوا للباب ، فثاروا عليه فقتلوه .

(٣٢) أخبار مجموعة ط حفيد ص ٢٠ .

عثمان بن أبي نسعة ابنة دوق أكيتانه (٣٣) وغيرهم . بل ان العناد السياسي قد دفع ببعض أمراء المسلمين المشاغبين الى أن يصهر الى بعض ملوك الفرنجة ، ويزف اليه ابنته ، كما فعل موسى بن زياد والى سرقسطة ، أيام محمد بن عبد الرحمن بن الحكم أمير الأندلس (٢٣٨ - ٢٧٣) اذ عزله الأمير فعصى عليه ، وكان أن زوج ابنته من أمير نقارة المسمى غرسية (٣٤) .

فكان في هذه الصلات وأشباهها مما كثر ولا بد في عمل الأفراد ، ما يعرف كل دين بصاحبه في الغرب تعريفا قويا .

١١ - واذا سعى رجال السياسية بعضهم الى بعض ، فقد سعى مثل هذا السعى رجال الدين أيضا في سلم أو ما يشبهه حيناً ، وفي حرب أو ما يشبهه حيناً بغية نشر الدين ، وكسب الأتباع ، وعندنا من مثل هذا الاتصال بين رجال الدين في الشرق ، وتناقشهما الديني ما لا نحب أن نعرض لتفصيله ، وان كنا لا ننسى أن لهذا الاتصال الشرقي ، أثره في الغرب . اذ ظلت الكنيسة الشريفة والغربية متحدتين الى القرن العاشر الميلادي ، كما لم ينقطع التعاون بينهما بعد الانفصال على رد الهجمات الاسلامية الاعتقادية وغير الاعتقادية .

وفي الغرب نفسه نجد ذلك السعى الى التبشير بين المسلمين ، فسان فرنشسكو رأس الرهبنة الفرنسيسكانية - ق ١٣ م - يرحل الى الشرق من أجل ذلك الغرض ، ويتقدم الى معسكر الملك الكامل الأيوبي بدمياط سنة ١٢١٦ م ليدعوه الى اعتناق المسيحية (٣٥) . و « ريموند لول » تضطرم في نفسه رغبة عنيفة حادة للتبشير بالمسيحية بين

(٣٣ ، ٣٤) محمد دياب بك : تاريخ العرب في اسبانيا ص ٢٩ ، ١٧٦ خلا عن مصادر غربية .

(٣٥) الكونت هنري دي كاسترو : الاسلام . خواطر وسوانح ص ١٨٦ - ١٨٧ من الترجمة العربية .

المسلمين ، ويرى ذلك أعظم غاية فى حياته (٣٦) • ونرى « بابايات » رومية أنفسهم يشاركون فى هذه الدعوة بالمكاتبة ، فيرسل البابا بيو الثانى Pio 2 الى اسلطان محمد الفاتح عقب سقوط القسطنطينية فى يده رسالة يدعو فيه الى اعتناق المسيحية ، ويناقش فيها تفاصيل فى الدينين ، الاسلام والمسيحية (٣٧) •

فهذه أمثلة تصور لنا الرغبة القوية فى الدعاية للمسيحية ، تلك الدعاية التى تقوم بلا شك على معرفة غير قليلة بالاسلام يحتاج اليها المتصدى للمناقشة والمفاضلة •

١٢ — ووراء هذا الاتصال حربيه وسلميه ، تلك الحياة المدنية العادية ، التى لن تخضعها للعزلة المواضعات المتخالفة من أديان ولغات وغيرها ، مهما قويت محادثتها ، بل تسيرها الروابط الاجتماعية ، والمصالح الاقتصادية القاهرة ، وعلى هذا الأساس كانت للمسلمين الشرقيين والغربيين رحلاتهم الاقتصادية فى قلب أوربا ، وأقصى شمالها وغربها ، مما كاسب تطول مدته سنين بحكم صعوبة طرق الاتصال والنقل وبطنها •

ونقرأ طرفاً من وصف تلك الأسفار فى كتب الجغرافيا العربيه ، وكتب الرحلات (٣٨) • ولهذه السياحات اثرها فى صلة الشعوب والأديان ، على نحو ما نرى فعله اليوم مثلاً فى نشر تجار المسلمين لدينهم فى قلب أفريقيا ، فهل تدون رحلاتهم القديمة فى قلب أوربا غير ذات اثر فى التعرف بالاسلام !!!

وكذلك كان يرحل تجار الغرب الى الشرق بحكم غناه ورقيه ، وقد كثرت تلك الرحلات ، واتصلت بعد ما مهدت

(٣٦) فيورنتينو Florentino : مختصر تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٣٠٥
والفريد وليام A. Yiullaume تراث الاسلام ص ١٧٢ •
(٣٧) الكونت هنرى دى كاسترو : الاسلام ص ١٦٦ - ١٦٧ من الترجمة العربية •
(٣٨) امين الخولى : رسالة فى السياحات الاسلامية - مخطوطة •

الحروب الصليبية منذ أول عهدهما للاختلاط القوى ، وزادت التعرف بينهما •

والى جانب ذلك رحلات غير التجار من الغربيين لأغراض مختلفة ، من نزهة وتطبيب ، واستفادة ، ووصفهم لما يشهدونه فى الاقطار الاسلامية فى كتب رحلاتهم واحاديثهم ، مما كان قد ينطوى فى تلك العصور على غير قليل من الاخطاء فى التعريف بالشرق والاسلام ، لكنه عامل له قيمته فى وصل ما بين الدينين على كل حال •

فتتعاون تلك العوامل الجمة على تعريف الغرب بالكثير من آراء الاسلام وعقائده ، تعريفًا لا بد أن يكون له اثره بفعل النواميس الكونية فى حياة الأفكار والآراء والعقائد ، من حيث تأثير بعضها فى بعض •

الفصل الثانى

(الاتصال المعنوى بين الدينين)

١ - فى الوقت الذى كانت تجنب فيه الأمة الإسلامية (١) الى الاستفراار لتقوم بنصيبها فى خدمة المدنية الانسانية شرقا وغربا ؛ خلال المدة من القرن الثامن الى الثالث عشر الميلادى ، فى ذلك الوقت كانت الحياة الاجتماعية والعقلية بل الدينية فى الغرب غافلة هامة .

كان فيه ما هو صورة أمة أو حكومة ، لكن لا أمة ولا حكومة (٢) : الأشراف فيه جهلاء ، أميون ، حتى ليقعون الوثائق والقوانين المهمة ، بصورة صليب ، هى كل ما يعرفون من الامضاء ؛ وحتى ليرى فى القرن التاسع الميلادى ، رئيس المحكمة ، وأعظم قضاة الدولة أميا لا يكتب؛

(١) أثرت أن اسمها « بالاسلامية » لا « بالعربية » . لأن الوصف الأول هو الصحيح فى التاريخ ، إذ لا يصدق وصفها بالعربية عهدا طويلا ، فقد كانت بعد يسير من ظهور الاسلام ، بفضل انتشاره وامتداد حركة الفتح ، مؤلفة من عناصر مختلفة ليس العرب أكثرها .

(٢) م . جيزو M. Jizot . التاريخ العام للحضارة فى أوربا بعد سقوط الامبراطورية الرومانية ... وهو المترجم الى العربية تحت عنوان الثقافة الأدبية فى تاريخ تمدن الممالك الأوروبية ، على يد الخواجة حنين نعمة الله خورى والمطبوع بالاسكندرية سنة ١٨٧٧ م - ١٢٩٤ هـ .

وجوستاف لوبون : تاريخ حضارة العرب من ٦١٤ .
ودويرتسون وليم : كتاب تاريخ شارلكان ، المقدمة من ٣١ ، ٣٢ ، ٢١٦ من الترجمة العربية .

يل في القرن الرابع عشر ، كان رئيس الجيوش الفرنسية ،
واعظم رجال الدونه ، واول اكابر عصره أميا (٣) .

وكان الدين المسيحي قد صار الى بدع بربرية وأكثر
رجاله جهلة ، لا يستطيعون التوقيع على القوانين التي
تصدرها المجامع . والقلة المتعلمة منهم كانوا يمضون وقتهم
في الأديرة ، يحون المؤلفات القديمة ليحصلوا على الاوراق
اللازمة لنسخ الكتابات الدينية (٤) .

٢ - في هذه الحال الآنف شرحها ، بدأ الاتصال المعنوي
بين الاسلام والمسيحية ، ذلك الاتصال الذي لانريد الافاضة
في وصفه ، بل نناله بقدر ما نبين طرائق نصل المعارف
الدينية وأثرها في الحياة المسيحية ، وفي العقلية المسيحية ،
وصلة العقلية بالحياة الدينية ، وما الى هذا مما هو طريق
لبيان ما قصدنا اليه من صلة بين الدينين .

واذا كان يستكثر اطلاق القول بأستاذية العرب التامة
للقرب في كل شيء وأن كل العلماء المعروفين من جميع الامم
الى القرن الثالث عشر أو الخامس عشر انما كان كل عملهم
هو تقليد العرب (٥) ، فلا مفر من القول بأن الثقافة
الاسلامية قامت بدور المرشد الأمين ، وأمدت متعلمي
القرون الوسطى بمادة كثيرة لدراستهم (٦) .

(٣) المصادر السابقة نفسها .

(٤) المصادر السابقة نفسها .

(٥) فيبر (Weper) : كتاب تاريخ العالم (Weltgeschichte)
ج ١ فترة ٤٤٤ ص ٨٠٦ .

ودوبرسون ولیم : المصدر السابق ص ٢٩٩ .

وجوستاف لويون : حضارة العرب ص ٦١٨ .

(٦) ر - ولیم : المصدر السابق ص ٢٩٩ .

وجويدو دي روجيرو : تاريخ الفلسفة المسيحية ج ٣ ص ٥ .

والفريد جيوم : تراث الاسلام ص ٢٤٣ من الأصل وص ٢٣٤ ج ١ من الترجمة
العربية التي نشرتها حديثا لهذا الكتاب « لجنة الجامعيين لنشر العلم » .

٣ - وأول ما بدأ ذلك الاتصال ، كان بالتعلم من مسلمى الشرق والغرب الذين كانت بلادهم معاهد يتنصف فيها الخاص والعام ، ومرجع المستفيدين من الغربيين ، الذين لهم عناية بالعلم ، وقد كانوا يادىء الأمر قليلين ، ثم تكاثروا بانتشار المعارف بينهم .

وإذا كان قد يشك فى أن البابا سلفستر الثانى نفسه « سنة ٩٩٩ م » ، قد تعلم على العرب فى بلادهم ، فلن يشك أبدا فى أن كثيرين غيره قد تعلموا فى هذه البلاد .

ثم تلا هذا الدور دور محاولة نقل المعارف الى انحاء أوروبا فكان الناقلون لهذه المعارف العجيبة ، المدهشة أبناء عصرهم ، يهتمون بالسحر (٧) .

ونمت حركة هذا النقل فيما بعد حتى ، لئرى قسطنطين الأفريقى الملقب بمعلم الشرق والغرب، فى القرن الحادى عشر الميلادى ، ذا نشاط عجيب فى ترجمة العلوم عن العربية (٨) .

ويطرد هذا النماء فنرى فى القرن الثانى عشر مثل يوحنا بن داود الأندلسى اليهودى ، وجيرار الكريمونى . الذى ترجم وحده ما لا يقل عن (٧٤) أربعة وسبعين كتابا علميا ما بين صغير وكبير (٩) .

وأفلاطون النيفولى يترجم المعارف الاسلامية عن العربية والعبرية . وآخرون غيرهم .

بل نرى للترجمة دوائر منظمة يؤيدها ملوك شهيرون فى نواح مختلفة من أوروبا ، ففى صقلية ، وناپلى وطليطلة ،

(٧) سديو : خلاصة تاريخ العرب ص ١٦٤ .

الخورى عيسى أسعد : الطرفة النقية من تاريخ الكنيسة المسيحية ص ٢٠٩ .

(٨) أرتورو كاستيليونى (Arturo Castilioni) الأستاذ بجامعة يادوا

كاتب مادة قسطنطين الأفريقى فى دائرة المعارف الإيطالية الجديدة .

(٩) كارلو ألفونسو نالينو (Cairo Alphonso Nallino) الأستاذ بجامعة يادوا :

وعضو المجمع الملكى للغة العربية : كاتب مادة - جيراردو - من دائرة المعارف الإيطالية الجديدة . (Gherardo)

وقشتالة ، وفرنسا ، تقام تلك المعاهد ، ونرى ملوكا أقوياء ، يبذلون جاهدتهم ومالههم لحماية تلك الحركة وزيادة نشاطها ، على نحو ما كان في قصور ملوك الشرق المسلمين .

ومن أكبر هؤلاء الملوك الغربيين وأجلهم ، فردريك الثانى هو هينشتاوفن الالماني امبراطور الدوق الرومانية المقدسة ، وحاكم صقلية . والفونس الحكيم القشتالي ، فتحت اشرافهما اشتغل مترجمون من أنحاء مختلفة في أوروبا . وكان « سكوت ميخائيل الاسكتلندى » ، فى حاشية فردريك المذكور ، يشرف على الترجمة الجديدة لأرسطو ، وتفسير فلسفته الاسلامية من اللغة العربية ، الى اللغة اللاتينية (١٠) مع آخرين من جنسيات مختلفة ، كما كان الحال كذلك تحت اشراف الفونس الحكيم فى القرن الثالث عشر نفسه .

وأعاد الغرب تاريخ الملوك العلماء فى الأمة الاسلامية . فكان الفونس الحكيم يصحح بنفسه ما يترجم الى اللغة القشتالية (١١) ، ومنفريد بن فردريك هو هينشتاوفن يترجم بنفسه (١٢) .

ولا نملى للقلم فى وصف حركة هذا النقل لئلا نبعد عن موضوعنا ، فنكتفى بأن نقول فى اجمال ان الثقافة الاسلامية كانت منتشرة فى جميع أنحاء أوروبا فى القرن الثالث عشر الميلادى (١٣) .

(١٠) دائرة المعارف الانجليزية مادة سكوت . (Scot)

(١١) ماريو كاسيلا (Marlo Casila) الأستاذ بجامعة فيرنسة الإيطالية كاتب مادة « الفونس الحكيم » فى دائرة المعارف الإيطالية الجديدة .
(١٢) مادة منفريد من الدائرة الإيطالية الجديدة .

(١٣) فيورنتينو : خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٢٧٧ - وأن حركة الترجمة عن العربية فى أوروبا خلال القرون الوسطى تستحق الدراسة المفردة وأرجو أن أصل من ذلك الى ما يكشفه جنبا عن هذا الجانب من صلة الشرق بالغرب ، كما أعيب بالباحثين أن يمنوا بالنواحي المختلفة من انتشار الثقافة الشرقية بعامة ، والاسلامية بخاصة فى أوروبا لهذا العهد ، استيفاء لتاريخنا ، وما هم أولاء الباحثون الأوروبيون قد بدءوا يقولون ذلك بشيء من الانصاف وحب الحقيقة .

وانما يجب أن نتولى بالتفصيل نقطتا ثلاثا ، تمس موضوعنا مساقويا تلك هي :

(١) معرفة الأوربيين للغة العربية ، لغة المعارف الاسلامية والدين الاسلامي .

(٢) الاتصال الفلسفي بين أوروبا والأمم الاسلامية ، لما كان هناك من صلة قوية بين الفلسفة والحياة الدينية في تلك الأزمنة .

(٣) معرفة الاوربيين للعلوم الدينية الاسلامية بخاصة .

١ - اللغة العربية في أوروبا

٤ - لا شك أن اللغة العربية من أقرب الطرق لمعرفة الشئون الاسلامية علمية وغيرها ، فلا غرو اذا كان انتشار اللغة العربية في أوروبا مظهرا له قيمته في درجة الاتصال بين الاسلام والمسيحية العربية .

ولقد رأينا في الفقرات السابقة ، أن الأمم المجاورة للدول الاسلامية تكاتبها بالعربية شعرا ، على مثل ما في قصيدة ثقفور « فصل ١ - فقرة ٧ » . ونرى الأسبانيين جيران المسلمين في الغرب ، قد يتخذون كتابا من العرب يكتبون عنهم بالعربية الى المسلمين في الأندلس والمغرب (١٤) وكما نجد الاتصال العربي بين الطرفين يدفع الى تعلم اللغة العربية ، فيبدأ الفرنسيون بتعلم العربية في الحروب

(١٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٢٩ - طبعة بولاق اذ يروى أن الأذفونثي كتب الى أبي يوسف يعقوب صاحب المغرب الذي كان قد جاء الى الأندلس ، رسالة من الشفاء وزير له يعرف بأبن الفجار ، ونصها :

« باسمك اللهم فاطر السموات والأرض صلى الله على السيد المسيح ، روح الله وكلمته ، الرسول الفصيح : إنما بعد فاته لا يخفى على ذي ذهن ثاقب ، ولا ذي عقل لازب ، أنك أمير الملة الحنيفية ، كما اني أمير الملة النصرانية ، وقد علمت الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس من التغافل والتواكل وإهمال الرعية ، وإخلاقهم الى الراحة ، وأنا أسوهم يحكم =

الصليبية ، ويدرسونها في أسبانيا على أهلها (١٥) . فكذا
نرى أن المناطق التي امتد فيها نفوذ العرب وتوطنهم « راجع
الفصل الأول فقرتا ١ ، ٢ » كان أهلها يتعلمون العربية
بحكم هذا الاتصال ، إذ كانت تؤخذ منهم الرهائن إلى البلاد
العربية كما تؤخذ منهم الأسرى ، فيتعلم كل هؤلاء العربية
من أهلها ، ويعودون بها إلى بلادهم ، كما يتعلمها من قد
يعتنق الاسلام من أوربي هذه البلاد ، وكذلك يظل يتكلمها
إلى حين من يبقى من المسلمين في أوربا أسيرا أو رقيقا ،
أو يتنصر في بعض تلك المناطق (١٦) .

وحينما قويت حركة التعلم والنقل العلمي التي سبقت
الإشارة إليها « كان المتعلمون من الأوربيين في البلاد
الإسلامية يتعلمون العربية ، كما كان يجيدها المترجمون
للعلوم الإسلامية ، ويعرفها دارسو تلك العلوم في الغرب ،
ومن هنا نسمع منذ عهد مبكر أن رجالا من ذوي الشأن
الديني أو العلمي أو السياسي ، كانوا يعرفون العربية ،

« القهر وخلاء الديار ، وأسبي الذراري وأمثل بالرجال ، ولا عذر لك في التخلف عن نصرهم
إذا أمكنتك يد القدرة . وأنتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم ،
فالأمر خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا ،
لا تستطيعون دفاعا ، ولا تملكون امتناعا ، وقد حكى لي عنك ، أنك أخذت في الاحتفال ،
واشرفت على ديوقة القتال وتماطل نفسك عاما بعد عام ، تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، فلا أدري
أكان الجبن قد أبطل بك ، أم التكذيب بما وعد بك . ثم قيل لي أنك لا تجد إلى جواز
البحر سبيلا ، لعله لا يجوز لك النجيم معها ، وهانا أقول لك ما فيه الراحة لك ، واعتذر
لك وعنك ، على أن تقي بالمهود والمواثيق ، والاستكثار من الرهاب (جمع رهب : النصل
الرقيق) ، وترسل إلى جملة من عبيدك بالراكب والشواني ، والطرائد والمسطحات ، وأجوز
بحملتي إليك ، فاقا تلك في أعز الأماكن لديك ، فإن كانت لك فتيمة كبيرة جلبت إليك ،
وهدية عظيمة مثلت بين يديك ، وإن كانت لي كانت يدي السليا عليك ، واستحقيت اماره
للنص ، والحكم على البرين ، والله تعالى يوفق للسعادة ، ويسهل الإرادة ، لا رب غيره ،
ولا خير إلا خيره إن شاء الله تعالى » .

وقد سقت للقاريء الكتاب كله ليرى فيه شاعدا لقوة صلة أهل ذلك البلاط الأفرنجي
بالاسلام ، ومعرفة الكثير من عقائده ، إلى جانب ما استشهدنا عليه من مكاتبة الفرنج لجيرانهم
المسلمين بالعربية .

(١٥) ريتو : المصدر السابق ص ٢٢٢ من الترجمة العربية .

(١٦) ريتو : المصدر نفسه ص ٢٣ من الترجمة العربية .

فمثلا نرى القسيس هرتموت Hert mot رئيس دير الصديس جانو بفرنسا فى اواخر القرن التاسع الميلادى كان يعرف العربية والعبرية (١٧) ، والبايا سلفستر الثانى كان يجيد العربية (١٨) ، والفيلسوف الشهير البرت الكبير كان يعرفها ، كما كان يتكلمها ملوك أوربيون كفريدريك الثانى ، ورجار ملك صقلية ، وغيرهم .

وما نريد أن نحصى متكلمى العربية من ذوى الشأن فى أوربا ، ملوك ، وعلماء ، ورجال دين ، فهذا ما لا حاجة بنا اليه ولا يد لنا به . وانما نكتفى فى الدلالة على درجة انتشار العربية فى أوربا ، خلال القرون الوسطى ، بما يقوله ، « روجر باكون » فى القرن الثالث عشر : « ان الفلسفة مأخوذة عن العرب فلا تفهم كما يجب الا اذا عرفت اللغة التى أخذت منها (١٩) ، والعبرية واليونانية لازمتان لفهم الكتب المقدسة ، وفلسفة أرسطو ، فالعربية لازمة لفهم ابن سينا وابن رشد » .

وكان باكون هذا يلوم الذين درسوا الفلسفة من المترجمات دون الأصول ، لا يستثنى من ذلك اللوم حتى القديس توما الأكوينى نفسه (٢٠) .

فهذا كاف للقول فى طمأنينة ، بأن اللغة العربية كانت منتشرة فى البيئات المثقفة فى أوربا ، خلال تلك العصور .

٥ - وقد قامت فى أوربا حركة مقاومة للاسلام ، كانت حربا صليبية معنوية ، تصدت لمقاومة الاسلام بأساليب علمية ، من بينها تعلم العربية ، فكان « ريموند لول » ، الذى يحسن اللغة العربية ، يجعل من الدراسات الشرقية أداة

(١٧) رينو : المصدر السابق . ص ٢٣٢ من الترجمة العربية .

(١٨) الخورى عيسى أسعد : الطرفة النقية ص ٢٠٩ .

(١٩) الفريد جيبوم : تراث الاسلام ص ٢٤٤ من الأصل ، ص ٢٣٥ ج ١ من الترجمة

العربية .

(٢٠) فيورنتينو : خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .

حرب صليبية هائلة ، سلاحها روحى خالص ، فيؤسس سنة ١٢٧٦ م كلية للرهبان فى ميرامار Miramar لدراسة اللغة العربية (٢١) . كما أسست أول مدرسة عرفتها أوروبا للدراسات الشرقية فى طليطلة على يد المبشرين ، وفيها كانت تعلم العربية (٢٢) ، كما كانت تعلم العبرية وغيرها من مواد تعين على اخراج مبشرين ضد الاسلام (٢٣) . ولعل لهذا الغرض من الحرب المعنوية قد تقرر ايجاد كراس لدراسة اللغات الشرقية من عربية وغيرها فى جامعات باريس ، ولوفان ، وسلمنقة ، فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى (٢٤) .

فهذه الحركات الايجابية والسلبية فى دراسة اللغة العربية ، أعنى تعلمها لاقتباس المعارف الاسلامية ، أو لمحاربة الاسلام والتبشير بالمسيحية ، كانت هذه الحركات كلها وصلا معنويا واضحا للغرب بالشؤون الاسلامية (٢٥) .

٦ - واذا ما تحدثنا عن اللغة العربية بأوروبا لدى العهد ، وأنها سبيل الاتصال بالثقافة الاسلامية ، فانه ليجب أن تذكر لغة أخرى سامية ، هى اللغة العبرية ، التى كانت شقيقة العربية تعاونا ، كما هى شقيقتهما نسبا ، فعملت على حفظ الذخائر العلمية للثقافة الاسلامية ، ياشترك اليهود فى الميدان العقلى جنباً الى جنب مع المسلمين ، حين اطمأنوا

(٢١) ايرلست ياركر : تراث الاسلام ص ٦٥ من الأصل ، و ١٢٤ - ١٢٥ ج ١ من الترجمة العربية .

(٢٢) الفرد جيوم : تراث الاسلام ص ٢٧٢ من الأصل ، ص ٣٠٠ - ٣٠١ ج ١ من الترجمة العربية .

(٢٣) المصدر السابق نفسه .

(٢٤) ايرلست ياركر : كتاب تراث الاسلام ص ٦٤ من الأصل ، ج ١ ص ١٢٥ من الترجمة العربية .

(٢٥) لم أر الاطالة بالاشارة الى ما كان من صلة قوية للغرب باللغة العربية وآدابها ، تلك الصلة التى تركت أثرها فى تطور القانون الأوربية فى الصور الحديثة مما تجد غير قليل عنه فى فصل « الأدب » من كتاب تراث الاسلام : وكتاب فيكتور هيجو ، علم الأدب عند الفرنج والعرب ، للمقضى وغيرها .

فى ظلال تلك الحضارة - ولا سيما فى أسبانيا - ، فكانت لهم فلسفة اسلامية العناصر عربية النصوص ، وان كتبت حيناً باللغة أو الحروف العبرية (٢٦) .

وقد كان لفلسفة اليهود المذكورة اثر عظيم على الفلاسفة الغربيين فى العصور الوسطى (٢٧) . كما ان اليهود قد حفظوا لأوروبا الثقافة الاسلامية بترجمتها الى العبرية ، وكثيراً ما كانت الترجمة منها الى اللاتينية (٢٨) ، حتى لقد يضيع الأصل العربى بعض الأحيان ، ولا يبقى الا الترجمة العبرية فقط (٢٩) ، كما ترجمت اليهود بأنفسهم من العربية الى غير العبرية من اللغات الأوروبية كالاسبانية مثلاً (٣٠) .

ولقد نقل اليهود الثقافة الاسلامية نقلاً فعلياً الى أوروبا ، حين هاجروا من اسبانيا الى الشمال ، لأسباب سياسية أو اجتماعية مختلفة ، ولا سيما هجرتهم الى جنوبى فرنسا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلادى (٣١) . وكانت هذه العبرية من اللغات التى شاع تعلمها فى الغرب حينما استيقظت الأفكار ، وزعماء رجال الاصلاح كانوا يعرفونها « كهس » ولوثر وغيرهما (٣٢) .

٢ - الاتصال الفلسفى بين الغرب والأهم الاسلامية

٧ - الفلسفة بفطرتها صورة واضحة للاتجاه الفكرى ، دينى وغير دينى ، والفلسفة فى تلك العصور الوسطى كانت

(٢٦) دائرة المعارف الاسلامية - مادة ابن ميمون - وجورج مور فى كتاب تاريخ الأديان ج ٢ ص ٣٩٨ . من الترجمة الإيطالية .
(٢٧) المصدران السابقان .

(٢٨) فيورنتينو : خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٢٥٤ .

(٢٩) دائرة المعارف الاسلامية - مادة فارابى .

(٣٠) دائرة المعارف الاسلامية - مادة ابن أبى الرجال .

(٣١) تعليق رقم ١ على هامش ص ١٧٤ ج ١ من الترجمة العربية لدائرة المعارف الاسلامية .

أشد عناية بالجانب اللاهوتى - ميتا فيزيقا - . ونستطيع القول بأن فلسفة تلك العصور الوسطى كانت إسلامية القيادة ، فلم يلبث الغربيون بعد ما ذكرنا من اتصالهم بالإسلام ، أن عرفوا ودرسوا فلسفة الإسلام جميعا من شرقيين وغربيين : كالكندى ، والفارابى ، وابن سينا ، والغزالي ، وابن رشد ، وغيرهم (٣٣) .

ومن المهم أن نلاحظ سرعة اتصال الغرب بمن كان من هؤلاء المفكرين فى أقصى الشرق ، فالغزالي المتوفى سنة ١١١١ م قد ترجم فى السنين الأولى من القرن الثانى عشر - حوالى نصفه (٣٤) - الى اللاتينية .

وهكذا ظهر التأثير بهؤلاء الفلاسفة المسلمين فى تفكير المفكرين الغربيين فى أقصى أنحاء أوربا ، فكان يوحنا دنس سكوت الاسكتلندى ، ق ١٣ - ١٤ يستوحى تأثير الارسططالية الإسلامية ، وبخاصة من ابن سينا (٣٥) ، كما يتأثر باين سينا نفسه فى ألمانيا الفيلسوف ايكهارت (٣٦) .

واسكندر الهاليسى الذى درس وعلم فى باريس ، يعتمد على الشروح العربية لابن سينا ، وابن رشد (٣٧) . والبرت الكبير يتأثر باين سينا ، حتى ليقول رينان ، انه مدين بكل شيء لابن سينا ، كما أن القديس توما الأكوينى فى ايطاليا

(٣٢) نقرأ فى كتاب قصة لوثر المطبوع فى فالتة سنة ١٨٤٠ ما نصه « ... وبناء على ذلك فوض لراهب من الدومينيقيين اسمه « هكستراث » ، امر سلطاني بأن يبيد ويحرق جميع ما يطلع عليه ويجده من الكتب العبرانية ، وقرر بعض علماء الكلام بمجلس المشورة فى باريس أنه ما دام الناس يرضخ لهم فى تعلم اللغتين اليونانية والبرانية ، فلا أمل ببقاء الدين » - ص ١٣ ، ١٤ من النسخة المحفوظة بدار الكتب المصرية .

(٣٣) الفريد جيوم : تراث الإسلام ص ٢٥١ ، ص ٢٥٤ ، من الأصل ج ١ ص ٢٥٣ .
ص ٢٣٩ من الترجمة العربية .

(٣٤) فيورنتينو : خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٢٧٠ .
الفريد جيوم : تراث الإسلام ص ٢٤٦ من الأصل ، ص ٢٣٩ ج ١ من الترجمة العربية .
(٣٥) جورج مور : تاريخ الأدبان ، الترجمة الإيطالية ج ٢ ص ٣٠٠ .
(٣٦) جورج مور : تاريخ الأدبان ، الترجمة الإيطالية ج ٢ ص ٣٠٥ .
واقرا شيئا عن ايكهارت هذا فى هامش الفصل الثالث بند .
(٣٧) فيورنتينو : خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٢٧٨ .

مدين كذلك لا ين رشد (٣٨) وهو فى الوقت نفسه ممن تأثر
بالغزالي (٣٩) .

وعلى غرار هذا أثرت الحركة الاسلامية فى معارمه
الفلسفه على متيلتها فى الغرب ، وترك طابع الغزالي العمل
والدينى . اترا على الساحتين النصارى من الملحظه الاولى ،
التى امذن لكتاباته فيها ان تقرا ، ولا يزالون يمنحونها
دراسة دقيقة (٤٠) ، واستعمل المسيحيون فى كثير من
رسائلهم العلمية براهين الغزالي على مسائل لاهوتية (٤١) .

وكذلك تأثرت الحركة الصوفية فى أوربا بعناصر
اسلامية (٤٢) . ولسنا نطيل هنا فنتولى شرح شىء من ذلك
فى تفصيل ، بل حسبنا أن تؤيد دعوى الصلة والتأثر ،
متوخين الرجوع الى عبارات العلماء الغربيين ، تمهيدا لما
سنشرحه من نقط التأثير الخاصة بموضوع الاصلاح الدينى
المسيحى فيما يلى ، محددين تلك المسائل هناك .

٣ - معرفة الأوروبيين بالعلوم الدينية الاسلامية

٨ - ان ما أسلفناه من أمر انتشار العربية فى أوربا ،
وأخذ الفلسفة والعلم عن مصادر اسلامية ، ليؤهل فى

(٣٨) جوستاف لويون : حضارة العرب من ٦١٨ .

(٣٩) ١ . جيوم : المصدر السابق من ٢٧٣ من الأصل . ج ١ من ٣٠٣ . من الترجمة
العربية .

(٤٠) ٤١ . ١ . جيوم : المصدر السابق من ٢٧٣ من الأصل - ج ١ من ٣٠١ - ٣٠٤
من الترجمة العربية .

(٤٢) ج . مور : تاريخ الأديان - ترجمة ايطالية - ج ٢ صفحات ٣٠٦ . ٣٠٧ .
٣١٥ - وواضح أننا لا نقصد هنا الى دعوى أن للعرب أو المسلمين فلسفة
خاصة لها شخصيتها المستقلة أولا ، مما قد يختلف الرأى فيه ، وإنما نقصد
الى بيان الاتصال العقلى والاستفادة مما كان العرب يقومون اذ ذاك على رعايته من علم
وفلسفة . لنمهد ببيان هذا الاتصال طريق الانتقال وتسرب الأفكار من البيئات الاسلامية
الى البيئات الاصلاحية ، على ما سنتلوه تفصيلا فيما بعد . وليس هناك من يشاكنا فى
هذا القدر حتى أقصى المتطرفين فى انكار ما للعرب من فلسفة خاصة ، أو زيادة اكسيوما
المعرفة الانسانية . فان لهم على أى فرض تلويحا اسلاميا ، واتجاها فى تطبيق الفلسفة
على الاسلام أو التوفيق بينهما ، ان ينكرا عليهما .

غير شك للاتصال بالمعارف الدينية الاسلامية ، ولا سيما في تلك الأعصر التي كان الطابع الدينى يسود الحياة فيها ، بل كان أبرز ما يهيمن عليها .

على أنا نملك فوق ذلك أخبارا عن محاولات ايجابية في أوربا للاتصال بالمعارف الدينية الاسلامية ، اتصالا خاصا ومباشرا ، ونقلها الى الغرب ، تعريفا له بها ، لأغراض مختلفة .

ففى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى ، ترجم القرآن الى اللاتينية ، رغبة فى نقدة ، ومناقشته ، اذ أن بطرس الفينرايلى Pietro il Vinrapily الذى كان رئيس دير كولونيا بفرنسا منذ سنة ١١٢٢ م قد دعا الى ذلك ، فقام بتلك الترجمة ، روبرت الراجينى Roberto deretine ، وهيرمان الفينرايلى Herman de Dalmatie ، وتمت الترجمة فى سنة ١١٤٣ م ، وهى الترجمة التى طبعت فيما بعد ذلك باربعة قرون فى مدينة بازل « سنة ١٥٤٣ م (٤٣) » .

وعلى ذكر الحديث عن ترجمة القرآن فى الغرب ، نذكر أننا نجد خبرا عن ترجمته كذلك الى اليونانية فى وقت متأخر ، عن زمن الترجمة اللاتينية ، ولكنه على كل حال قبل الحركة الأخيرة فى الإصلاح ، اذ يروى أن ذلك قد تم فى القرن الرابع عشر الميلادى على يد يوحنا كانتا كوزينى ، الذى كان امبراطور الدولة الرومانية الشرقية فى بيزنطة ، باسم يوحنا السادس ، ثم ترهب ودعى يوسف ، ويذكر كذلك أن راهبا يدعى ملاتيوس ، كان مسلما ثم اعتنق الدين المسيحى وترهب ، وقد غاونه فى هذه الترجمة (٤٤) .

(٤٣) مادة قرآن فى دائرة معارف الأديان والأخلاق .

ولويجى بوليللى فى مقدمة ترجمته الايطالية للقرآن المطبوعة سنة ١٩٢٩ ص ١٥ .
وقد ذكر الأستاذ تولد فى كتاب تراث الاسلام . ج ١ ص ٥٥ من الترجمة العربية -
روبرت هذا أحد مترجمى القرآن ، بين من زاروا مدرسة طليطلة ، وسماه « روبرت الانجليزى »
(Robertus Angelicos)

(٤٤) الدرة النفيسة فى شرح حال الكنيسة ص ٣٢١ . وقد أشرنا فى الفصل الأول
فقرة ٩ ، الى خبر هذا الراهب المنتصر ، كما ذكرنا فى لقرة ١٠ من هذا الفصل ، خبر
مهاجرة السلطان أورخان العثمانى لهذا الامبراطور .

بل نجد أن القرآن نفسه لم يكن يعترف في أوربا
بتراجمه غير العربية فقط ، وإنما كان يقرؤه فسيسون
بالعربية في أوربا ، خلال القرن الثالث عشر ، على ماورد
في إحدى رسائل القسيس ريكولدو الايطالى المتوفى سنة
١٣٢٠ م (٤٥) .

٩ - وبين اللاهوتيين المسيحيين في الشرق والغرب ،
رجال عرفوا الاسلام معرفة غير يسيرة الشأن ، ولا سادجة .
فاطلعوا على معارفه الدينية وناقشوا فيها ، وجادلوا اهلها ،
فمن هؤلاء في الشرق مثلا : يوحنا الدمشقي - البطريرق
يحيى - الذى عاش في القرن الثامن الميلادى ، هو وأبوه في
قصر الخليفة الأموى « عبد الملك بن مروان » وله في جدل
المسلمين أخبار ماثورة ، كما صنف في ذلك ، وهو يعتبر أول
منظم لعلم اللاهوت (٤٦) .

ثم تلميذه « تيودور أبو قرة » - ق ٨ - م أيضا -
وهو اللاهوتى الضليع ، المتمكن من معرفة اليونانية
والعربية ، والذى خلف ثلاثة وأربعين تأليفا عن الاسلام ،
واليهودية ، والمذاهب المسيحية (٤٧) .

وغير هؤلاء كثيرون من رجال الدين العارفين بالاسلام
في الشرق ، والمؤلفين في الشئون الاسلامية . والذين
لا نشك أنه كان لكتابتهم أثر في الكنيسة الغربية ، لعدم
انقطاع الصلة بين الكنيستين في ذلك العهد على ما أشرنا
اليه سابقا .

على أنا لا نطيل الحديث عن هؤلاء الشرقيين ، بل نعود
الى الغرب نفسه ، فنرى أن بطرس الفينرا بلى الداعى الى

(٤٥) هنرى دى كاسترو : الاسلام خواطر وسوانح ص ١٥٦ من الترجمة العربية .

(٤٦) الخورى عيسى أسعد : كتاب الطرفة النقية ص ٢٠٠ - ٢٠١ ج ٠ مور : كتاب

تاريخ الأديان : ج ٢ ص ٢٥٧ .

(٤٧) الخورى عيسى : المصدر السابق - ص ٢٠١ .

ترجمة القرآن اللاتينية ، يزور أسبانيا سنة ١١٤١ ،
فيدرس هناك أصول النظريات الاسلامية الدينية ، ويختب
بحثا في نقد اليهودية والاسلام (٤٨) .

ولقد اشرنا قبل الآن - الفصل الاول فقرة ١١ - الى
ما كان من الرغبة المضطربة لريموند نول في تبشير المسمين
بالمسيحية ، فكان له من المعرفة بالعربية واللاهوت الاسلامي
حظ عظيم ، ولا ينكر الباحثون الغربيون صلته بالمصادر
الاسلامية واثرها فيما ترك من مؤلفاته ، ولا يخامرهم شك
في اقتباسه قسما عظيما من لاهوته عن العرب ، كما تنم عن
ذلك رسالته عن أسماء الله المائة (٤٩) .

و « لول » هذا هو الذي اشرنا سابقا - فصل (٢)
فقره (٥) - الى استعماله اللغة العربية والمعارف الاسلامية
أداة لحرب صليبية معنوية ، وأنه أسس لذلك في القرن
الثالث عشر مدرسة تبشيرية ، تخرج رجالا يحسنون ذلك
الكفاح ضد الاسلام ، كما اشرنا هناك الى مدرسة المبشرين
في طليطلة لهذا الغرض عينه ، ونقول هنا ، انه كان من
المتخرجين في تلك المدرسة « ريموند مارتن » - ق ١٣ -
وكانت له معرفة بمؤلفي العرب ، ربما كانت منقطعة النظر
في أوروبا بأسرها ، حتى في العصور الحديثة ، ولم يكن يعرف
القرآن وسنة الرسول فحسب ، بل كان يعرف كذلك كبار
العلماء من رجال الدين المسلمين ، وعظماء فلاسفة
الاسلام » (٥٠) .

تلك ظواهر من اتصال الغرب بالتفكير الديني في
الاسلام ، والابحاث الاعتقادية عند أهله شرقا وغربا ،
ظواهر تجعل الاتصال بين الدينين وثيقا قويا .

(٤٨) مادة Pierre le Venerapla من دائرة المسارف الفرنسية ج ٢٦
le Grand Encicl

(٤٩) ١ . جيوم : ثرات الاسلام من ٢٧١ من الأصل . ج ١ من ٣٠٠ من الترجمة
العربية .

(٥٠) المصدر السابق من ٢٧٣ من الأصل - ج ١ من ٣٠١ من الترجمة العربية .

١٠ - ومع ما رأيناه من اطلاع الغرب على الدراسة الدينية الاسلامية ، نقف هنا وقفة خاصة ، لنشير الى عالم أندلسى كبير الخطر، مؤثرين أن نلفت النظر أولا الى ما يلحظه الباحثون الغربيون ، من أن أسبانيا الاسلامية كانت مسراة صافية يتجلى فيها شتى المذاهب الاسلامية ، كما كانت أداة هامة فى نقل تأثير العرب الى الغرب (٥١) •

وذلك العالم الذى نبتغى الاشارة اليه هو : أبو محمد على ابن أحمد بن حزم الظاهرى ، المؤيد القوى للفكرة الظاهرية بالاندلس ، والذى نعتبر الناحية المبتكرة فيه ، هى تطبيق أصول هذه الفكرة على العقائد ، فلا يأخذ فيها الا بالمعنى الظاهرى للقرآن والاحاديث الموثوق بها ، وعلى هذا الاساس من البحث ، نقد الفرق الاسلامية نقدا شديدا ، كما كان يمثل أهل التوحيد الذين انتقضوا على التوسل بالأولياء ، ومذاهب الصوفية ، وأصحاب التنجيم (٥٢) •

هذا العالم ذو الآثار الكثيرة ، والآراء القوية ، والشخصية الواضحة ، لا أجد عنتا فى القول بأن الغرب المتصل باللغة العربية ، والدراسات الاسلامية ، - وبخاصة فى أسبانيا - قد عرفه واتصل بآثاره •

ولئن كنت لا أجد الشاهد النصى على هذا ، فانى أسوق لتأييد استنتاجى الاعتبارات الآتية :

١ - انه عاش فى اسبانيا ، حيث كان الاتصال قويا جدا ، بين الغرب والآثار الاسلامية (٥٣) • على ما قدمنا من بيان •

(٥١) راجع فى هذا صفحات ٨٨ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ٢٧١ من ج ١ : تراث الاسلام
الترجمة العربية •

(٥٢) أرندت C-Van-Arendonac كاتب مادة « ابن حزم » فى دائرة المعارف الاسلامية ص ١٣٩ - ١٤٠ من المجلد الأول من الترجمة العربية •

(٥٣) اقرأ فى كتاب تراث الاسلام - ج ١ ص ٥٤ - من الترجمة العربية ما نصه : « قد استغرق تأثير الاسلام فى مرافق الحياة فى اسبانيا فى القرن العاشر • فلما سقطت طليطلة انتشر هذا التأثير حتى شمل بقية أوروبا ، ذلك أن هذه الأخيرة كانت قد أصبحت =

٢ - انه أحرز حظا عظيما من الشهرة ، وكانت له آثار قيمة ، كما كانت حياته مثار مقاومة عنيفة ، واضطهاد شديد فمثله ليس بالمغمور ، ولا بالمجهول .

٣ - بقاء أفكاره وآرائه ، واستمرار الخلاف حولها الى ما بعد وفاته بنحو قرن تقريبا (٥٤) ، فذلك خليق بلفت النظر اليه .

٤ - مقاومته العنيفة لليهودية والنصرانية على اختلاف مذاهبهما ، وكثرة مناقشته وردده على مواضع اختلافهما مع الاسلام ، واظهار مواطن الأخذ والرد فيهما .

فمثل بطرس الفينرايلي (٥٥) وهو رئيس دير ، اذا مازار اسبانيا بعد وفاة ابن حزم ببضعة وسبعين عاما ، على ما نقلنا آنفا من خبر ذلك (٥٦) ، وعرف هناك النظريات الدينية الاسلامية معرفة نقدية ، يكتب صاحبها بحثا في نقد الاسلام واليهودية ، لا يكون من اليسير أن يجهل ابن حزم وآثاره ، بعد الذي قدمنا من ملاحظات .

ولسنا نذكر « بطرس » هذا الا على سبيل المثال ، فليس ببعيد أن كثيرين مثل بطرس قد ترددوا على اسبانيا : واتصلوا بالنظم الاسلامية كما هو معروف ، فلا علينا اذا ما رجحنا أن ابن حزم قد عرف في الغرب ، وعرفت آراؤه الخاصة ، التي أثرتنا اليها آنفا ، وسنشير اليها فيما بعد ، عند تناول مبادئ الإصلاح المسيحي تفصيلا .

نرجح معرفة الغربيين لابن حزم ، فهم الذين عرفوا من في المشرق البعيد، سريعا وجيدا، كالفزالي وغيره على ما بيناه من قبل .

= شيئا فشيئا ، مركز الثقافة الاسلامية في القرن الحادي عشر ، بعد أن خرب البربر قرطبة في أوائل هذا القرن ، وبقي لها هذا المقام بعد الغزو المسيحي سنة ١٠٨٥ ٠٠٠ الخ « ، وابن حزم من أهل القرن الحادي عشر الميلادي - توفي سنة ١٠٦٤ م - .
(٥٤) اردنك : المصدر السابق من ١٤٣ من الترجمة العربية .
(٥٥ ، ٥٦) انظر الفصل الثاني فقرة ٨ .

١١ - ولعل من خير ما نتم به اعداد ذهن القارئ
للحديث التفصيلي عن تآثر مصلحي المسيحية بالاسلام ، أن
نلفت النظر الى ذلك الاتصال بين الشرق والغرب ، ودينيهما ،
في البيئة الالمانية بخاصة ، اذ هي التي كانت ميدان معارك
الاصلاح العملي للمسيحية ، في دوره التنفيذي .

ففي حركة نقل العلم الاسلامي الى أوروبا ، قد رأينا ان
ناصرها الاكبر ، انما هو الامبراطور الملحد ، فردريك الثاني
هوهنشتاوفن الألماني ، الذي يعرف تاريخ الكنيسة أثر
صراعه وصراع أسرته ، وما لحق البابوية بسبب ذلك من
أضرار .

وميول هذا الامبراطور ، الشرقية العربية ، بل
الاسلامية ، كانت مثلاً غريباً في أوروبا ، في العصور
الوسطى ، بل في هذه العصور الحديثة أيضاً ، فلقد أثر
الثقافة العربية على الثقافة اليونانية ، وظهر التأثير العربي
في تربيته وفي ميوله الشخصية والطبيعية ، وفي علاقاته
بالعالم الثقافي الشرقي ، ولعظم التأثير العربي عليه ، كان
يلقب « السلطان المعمد » (٥٧) . ومنذ أعوامه الأولى كان
يحيا على أسلوب عربي ، ويألف العادات العربية ، وقد أنشأ
من عهد زواجه الأول مقاصير للسيدات - يسميها الكتاب
الغربيون حريما (٥٨) - وعلاقاته الودية مع الشرق ،
ولا سيما مصر ، وتونس ، مما يلذ تتبع بحثه ويكشف عن
درجة تغلغل روح الشرق في أوروبا ، خلال العصور الوسطى .

ثم نرى أن والسدة ألفونس الحكيم الذي هو ضريح
فريدريك الكبير في هذه الرغبات الشرقية الاتجاه ، والذي
عمل بجهد على نقل الثقافة الاسلامية الى أوروبا ، نرى أن والده

(٥٧ ، ٥٨) رافاييل مورجن Raffaello Morghen استاذ تاريخ القرون
الوسطى بجامعة روما - في مادة فردريك الثاني هوهنشتاوفن . دائرة المعارف الإيطالية-
الجديدة .

الفونس هذا انما هي أميرة - سفيبيا - المظاعمة
البافارية (٥٩) ، التي منها فردريك الثاني واسرته *

كما نرى أن الفيلسوف الشهير ألبرت الكبير (٦٠) يمت
بصلة واضحة الى فردريك الثاني أيضا ، وليس الفيلسوف
الا ابن أحد أصدقاء هذا الامبراطور نفسه *

وكذلك نجد أن القديس توما الأكويني ، الفيلسوف
اللاهوتي (٦١) ، انما هو ابن أحد اقارب أسرة هذا
الامبراطور - هوهنشتاوفن - أيضا * وكلا الفيلسوفين قد
أصاب حظه من معرفة الثقافة الاسلامية والتأثر بها - انظر
فصل ٢ فقرة ٧ - *

ومن كل هذه الشواهد نقدر صلة البيئة الألمانية ،
بالثقافة الاسلامية والمؤثرات الاسلامية ، ونرى اثر تلك
البيئة يظهر في قشتالة ، بأقصى الغرب الجنوبي في اوربا ،
كما يظهر في ايطاليا جنوبا *

على أنا نرى في القرن التالي لما سبق - أي القرن
الرابع عشر الميلادي - أن بافاريا هذه نفسها ، هي المعقل
لحماية أعداء السلطة الكنسية ، الذين هم من أنصار
الفلسفة الرشدية ، وأحرار الرهبان الفرنسيسكانيين ،
اذ يحمي بلاط لويس ملكها مثل : مارسيليو دي بادوفا
الرشدي الشهير ، وعدو الكنيسة كما يحمي « أوكام »
الفيلسوف الفرنسيسكاني - الذي سنرى علاقته الفكرية
بلوثر - وأوكام هذا هو الذي قال للامبراطور كلمته

(٥٩) مادة الفونس الحكيم في دائرة المعارف الإيطالية *

(٦٠) البير الكبير * ١٢٠٥ - ١٢٨٠ م * فيلسوف مدرسي وراهب دومينيكاني ،
واسع الاطلاع حتى لقد اتهم بالسحر ، كجربيرت سلفستر تلميذ العرب ، وقد قدمنا أنه
كان يعرف العربية *

(٦١) القديس توما * ١٢٢٥ - ١٢٧٤ م * أشهر تلامذة ألبرت الكبير ، وتسميته
« الأكويني » الى أكوينو صاحبة نابلي ، وهو راهب دومينيكاني أيضا ، متحه البابا لقب
قديس ، ولقبه بابا آخر بعد ذلك « بالمعلم الملائي » *

التاريخية الشهيرة « دافع عنى بسيفك أدافع عنك
بقلمى » (٦٢) .

وفى هذه البيئة الألمانية قد راينا التأثير الاسلامى يصل
الى « ايكهارت » - انظر فصل ٢ فقره ٧ - وسنرى فى
الفصل التالى ، كيف يظهر هذا التأثير فى جماعة « اخوه
وأخوات الفكر الحر » فى ألمانيا العليا ، وفى سويسرا ، كما
سنرى أثر « ايكهارت » المباشر فى آراء الاصلاح
البروتستانتى .

من كل هذا يتجلى للقارئ التأثير الاسلامى الذى
أوضحنا قوته فى أوروبا بعامة ، وأنه كان واضحا قويا فى
البيئة الجرمانية - أى الميدان الأخير للاصلاح - .

★★★

١٢ - الى هنا قد بينا مظاهر الاتصال المادى ،
والاتصال المعنوى ، عقليا ، واعتقاديا ، بين الاسلام ،
والمسيحية فى الغرب ، بيانا يحق لنا بعده أن نقول :
اننا قد دللنا به على الطريق الناهج السوى لانتقال ما انتقل
من أفكار وآراء ، حتى ليحق لنا بعد هذه المقدمات أن نتصدى
لبيان النتائج .

(٦٢) فيورينتينو : خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٢٩٨ .

الفصل الثالث

من نتائج الاتصال

١ - نتقدم مطمئنين بعد الذي أبنا من طرق الانتقال ، ونواحي التأثير ، وعوامل التأثير ، فنشرح ما ترتب على هذا كله من نتائج عامة في الحياة الدينية ، والعقلية الأوربية ، من حيث مظهرها في تدين أهلها ، وفهمهم للدين ؟ ثم ما ترتب على هذا كله من نتائج خاصة في الإصلاح المسيحي نفسه ، وآراء القائلين به ، وما دعوا اليه من أفكار ، وناضلوا في سبيله من مبادئ ، مساهم قد تأثروا فيها بالاسلام .

نريد أن نبين ما تأثرت به - بصفة عامة - الحياة العقلية ، والحياة الاعتقادية ، والعلاقة بين المسيحي والكنيسة الكاثوليكية وما الى ذلك ، خلال القرون الوسطى ، اذ الصلة بالشرق والاسلام وثيقة .

كما نبين ما تأثرت به - بخاصة - حركة الإصلاح المسيحي نفسها ، تلك الحركة التي عملت فيها أجيال متعددة ، وطبقات من الناس ، منذ القرن الثاني عشر الميلادي الى القرن السادس عشر (١) .

(١) ليس بدعا من الرأي التاريخي ، أن ننظر الى أصول الإصلاح البروتستانتي هذا النظر البعيد ، بل هو الذي تتطلبه الدقة التاريخية ، وتؤيده المسند الاجتماعية ، على أن الكتاب عن تاريخ المسيحية قد صرحوا بهذا حتى جعلوا الإصلاح اصلاحيين : الاول والثاني . ومن هؤلاء « ايرنستو بوتايلي » في كتابه « معالم تاريخ المسيحية » Pietre Miler nelle Storia del Cristianesimo (problemi d'aggi) وهو الحلقة الثامنة من مجموعة « مسائل اليوم »

على أنا حين نفسر هذا الاتصال ، وذلك التأثير ، لانزعم
انه هو وحده الذى خلق حركة الاصلاح المسيحى ، وأنه سببها
الأول والأخير ، بل نقدر ماهنا لك من أسباب وعوامل
اجتماعية ، ودينية ، وغيرها ، قد عملت عملها ، وتمركت
أثرها ، ودفعت الحياة الى ذلك الاتجاه ، فلفتتها الى النواحي
العقلية والدينية ، التى قربها لها ، وقدمها بين يديها ، ذلك
الاتصال السالف بالشرق الاسلامى .

فمقصودنا العلمى ، انما هو القاء الضوء الكافى على
الجانب التاريخى من اتصال الدينين - المسيحية والاسلام -
ببيان هذا الاتصال وأثره ، تاركين ماعدا ذلك من مؤثرات
أخرى سببت ظهور الاصلاح الدينى وتماحه ، لاننا لا نؤرخ
الاصلاح تاريخا شاملا ، وانما نقصد الى بيان هذا العنصر
من أسبابه فحسب .

(أ) الآثار العامة

٢ - كانت مظاهر هذا التأثير العامة فى حياة المسيحية
بالغرب هى :

(أولا) الغرض من سلطة الكنيسة ، والحد من سيطرتها
على الحياة ؛ ولعل هذا الغرض من السلطة الكنسية قد بدأ منذ
وقت مبكر فى الشرق ، بسبب انتشار الاسلام ، اذ دخلت فى

عقد الكاتب المذكور فى كتابه هذا فصلين : أحدهما عنوانه : الاصلاح =
الأول ، والآخر عنوانه : الاصلاح الثانى

وبدأ الأول بالحديث عن القالدية فى القرن الثانى عشر الميلادى . ومن أجل ذلك لا نجد
تكلفا فى التفسير التاريخى الذى سرت عليه هنا فى فهم اصلاح المسيحية . ولا أظن أن
فى هذا الاتجاه تحيزا ما . وليس يؤثر فى صحة هذا النظر التاريخى أن تعدد طلائع
الاصلاح الأولى ، وبوادره القديمة البعده زيفا ، عند الكتاب الكنائسيين فى تاريخ المسيحية ،
فإن البحث العلمى لا يجزع من مثل هذا ، ولا يتأثر به ، ومثله مما تختلف فيه النظرة
= عقد الكاتب المذكور فى كتابه هذا فصلين : أحدهما عنوانه : الاصلاح الأول ، والآخر
عنوانه : الاصلاح الثانى

حمايته كنائس شرقية تمتعت بتساهل المسلمين ، فوجدت الفرصة لترويج آرائها الدينية ، التي كانت تحتسب عند الكنيسة المحافظة بدعا ، فثغرت بذلك قوة الكنيسة ، وأضعفت تماسكها (٢) .

ثم كانت الحروب الصليبية ، التي أن اتارتها حمية قوية ، فقد كانت نتيجتها بعد أن اتصل الشرق بالغرب ، اتصالا قويا ، أن خمدت تلك الحمية ، وهترت حدنها ، قدم ينته القرن الثاني عشر ، ويبدأ القرن الثالث عشر حتى همد ذلك الحماس ولم يعد يحرك القلوب الأوربية ، فوقف ندفعهم على الشرق بالكثرة الأولى ، وتغير نظرهم للمسلمين وتقديرهم لهم ، حتى انتهى الأمر أخيرا الى تحديد سلطة الأفكار الدينية المطلقة على عقولهم (٣) والاقلال من سيطرتها على أفئدتهم .

★★★

٣ - ثانيا : تحرير العقل ؛ وقد كان هذا التحرير الخطوة الأولى ، والسبب الفعال لما أشرنا اليه من تحديد السلطة الكنسية .

تم هذا التحرير بتأثير عوامل مختلفة ، كهذه المعارف العلمية المتنوعة التي اتصل بها الغربيون ، وكان للشرق فضل الهداية اليها ، وكالحركة الفلسفية التي ذكرنا علاقة الغرب فيها بالشرق ، والفلسفة دائما تعطي العقل قوة الشعور بنفسه ، والاحساس بوجوده .

ولقد مرت الفلسفة بأدوار مختلفة فى علاقتها بالدين

(٢) الى هذا المعنى يقتضيه مؤرخو الأديان من الغربيين ، راجع تاريخ الأديان لمور في ترجمته الايطالية ج ٢ ص ٢٥٧ .

(٣) جيزو . تاريخ الحضارة . السابق ذكره . ص ٢٦١ ، ٢٦٤ من الترجمة العربية .

من مخالفة ، وتوفيق وغير ذلك حتى كان مصيرها التحرر
التام من سيطرته (٤) .

وإذا ذكرنا الفلسفة وعملها في تحرير العقل ، فما يمس
موضوعنا أقوى المساس تلك الملاحظة التي يدحرها ريس في
دراسته لفلسفة ابن رشد ، وهي :

« أن الرهبان الفرنشيسكانيين كانوا أنصارا أقوياء
للفلسفة الاسلامية ، ومبادئ ابن رشد في اوربا (٥) .
اذ نذكر أن هؤلاء الفرنشيسكان كانوا بحريتهم العمليه من
أقوى المقاومين للسلطة الكنسية ، كما سنرى الامثلة الكثيرة
لذلك فيما يلي ، حتى لنستطيع أن نقول في طمأنينة ، أن
الصراع بين الكنيسة والحرية العقلية ، في القرون الوسطى ،
كان صراعا بين الكنيسة والفلسفة الاسلامية مباشرة ، أو
بالواسطة ، كما يشهد بذلك تاريخ الفلسفة الرشدية في
أوربا .

٤ - وحين نتكلم عن الصراع بين الكنيسة والحرية
العقلية ، نستطيع أن نجد الصلة غير الخفية بين حركات
التجديد في حياة الكنيسة ، أو حركات الخروج على الكنيسة ،

(٤) يلاحظ مؤرخو الفلسفة ، أن الفلسفة المدرسية ، قد كان مصيرها
هو مصير الحروب الصليبية ، فكما بدأت هذه الحروب بالرغبة في تغليب قبح
المسيح من يد الكفار ، فانتهدت الى خلق التجارة الواسعة ، وتنمية الرفاهية الانسانية ،
وهكذا أخذت الفلسفة المدرسية في حماية العقيدة على يد « ألبرت الكبير » و « توماس
الأكوين » ، فانتهدت بأحياء حركة عقلية ترفض كل تدعيم للعقيدة أو حماية لها .
راجع فيورينتينو في خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٢٩٧ ، فقرة ١٢٢ بتصرف
يسير .

(٥) فرج أنطون : ابن رشد وفلسفته ص ٧٣ . وحين نسوق هذه الاشارة لا غنى
عداوة مثل « ريموند لول » للفلسفة الرشدية ، لقوة تمسبه ودعوته الى انشاء جمعية
عسكرية كبرى للسعي الى اسقاط الاسلام ، ولكنه مع ذلك ، كان واسم الأفق . جعل معرفة
الاسلام والعربية عنده في رعايته التحصينية ضد الاسلام ، الذي طاف أوربا ، محرضا
للزك والباباوات فيها على حرب صليبية ضده ، ولعلنا نشهد اليوم هذه الظاهرة في
استمالة الشرق بمعارف الغرب حين يكافحه وللحياة نواميس وسفن مطردة .

وبين المؤثرات الاسلامية - من ثقافة وغيرها - اذ كانت هذه الحركات الدينية صدى التقدم العقلي ، واليقظة الروحية ، التي رأينا علاقتها في الغرب ، بالمؤثرات الاسلامية .

ففى الماضى غير القريب ، نرى الفرقة القالدية (٦) فى الثلث الأخير من القرن الثانى عشر ، تلك الفرقة التى كان ظهورها من الحركات القديمة ضد الكنيسة وحالتها الفاسدة فانتظمت مبادئها عناصر هامة ، مما قرره أخيرا الاصلاح البروتستانتى فى القرن السادس عشر (٧) .

ومما يلفت نظر الباحث فى حال هذه الطائفة انها نشأت فى جنوب فرنسا حيث امتد نفوذ الاسلام السياسى والروحى ، بل حيث توطن المسلمون فعلا - أزمنة غير قليلة - على ما بيناه فى « الفصل الأول » - وحيث عرف الفرنسيون الاسلام ، أو اعتنقه أشخاص منهم ، ثم حيث تجاوز هذه المنطقة أسبانيا الاسلامية ، أقوى مصادر التأثير الاسلامى على أوروبا ، وحيث كان يهاجر اليهود من أسبانيا حاملين آثار الثقافة الاسلامية - على ما أشرنا اليه كذلك فى الفصل الثانى .

أفليس ذلك كله مما تسهل معه ملاحظة أثر هذه الظروف المادية والمعنوية فى تفكير طائفة الفالديين هذه ، وحياتها ؟ ولو أنى لا أحب الماضى هنا فى وصف هذا الأثر وتحديده ،

(٦) نسبة الى « بطرس فالديو » ، الذى كان تاجرا فى ليون ، وقرر أن الكنيسة الرومانية حائلة عن الانجيل ، وتجب اعادتها الى أصوله ، فتصدى لذلك . ومن آراء هذه الطائفة : وجوب التعويل على الكتاب المقدس ، وأن الكتاب يتضمن كل ما يكفى للنجاة ، وأنه لا مقتضى للاستغاثه بالقدسين والاستشفاع بهم فى نوال النجاة ، كما يرون أن رياسة البابا يجب هدمها . الخ .

واذا كان الكتاب الدينيون يصفون هذه الشيعة بالمروق فان من المؤرخين من يقول : انه لو اعتمد البايوات هذه الطائفة كما اعتمدوا رهبنة الفرنسيسكانين مثلا ، لكان « فالديو » يعد اليوم من القديسين ، بدل أن يحسب فى المتدينين . وقد أسلفنا القول فى أن ما يعد بالأمس موقعا ، يصبح فى القد اصلاحا .

(٧) الدرة النفيسة فى شرح حال الكنيسة من ٢٧١ - ٢٧٢ .

مكتفيا بالإشارة إلى الآثار العامة ، والصلة غير الضعيفة بين
الحركات الكنسية والبيئة الإسلامية •

وبين حركات التجديد التي أقرتها الكنيسة ، ترى
الرهبانيين العظيمنتى الشأن فى القرون الوسطى ، وهما
الرهبانية الفرنسيسكانية ، والرهبانية الدومينيكانية •
تنسب أولاهما إلى « فرنشيسكو الاسيسى » • الذى حدثناك
عن رحلته إلى الشرق ، ولقائه الملك الكامل ، يحاول تبشيره
بالنصرانية - فصل ١ - فقرة ١١ - ، فقد كان لرحلته إلى
الشرق أثرها فى تأسيس تلك الرهبانية ، ويتجاربها فى
التبشير بسوريا والمغرب ، رجع يكرس نفسه لإعادة المسيحيين
فى أوروبا إلى الحياة المسيحية الحقيقية (٨) •

وتنسب الرهبانية الثانية إلى « دومينيكوس » الراهب
الاسبانى ، مخترع ما يسمى فى الكنيسة « بالفحص
الشريف » ، الذى عرف فى التاريخ باسم ديوان التفتيش ،
وقد كان أول ما قام منه فى مدينة طليطلة سنة ١٢١٦ م •

وليس من الدقة أن نفرض النظر عن اسبانية هذا
الراهب ، أو عما ظهر فى هذه الرهبانية ورجالها من ميل
مبكر إلى العلم ، وحسبانهم حسابا كبيرا للمعرفة والدرس (٩)
فلاسبانيته بلا شك أثر فى هذا كله •

على أنه قد ظهر من الرهبانيتين كثير من المفكرين
والفلاسفة الذين ذكرنا أنفا ، صلتهم بالبيئة الإسلامية مثل:
ألبرت الكبير ، والقديس توما الأكوينى من الدومينيكانيين :
والاسكندر الهاليسى ، وروجر بيكون ، ودنس سكوت ، من
الفرنشيسكانيين ، وغير هؤلاء وأولئك •

(٨) ج • • • تاريخ الأديان ج ٣ ص ٣٠٩ • ترجمة إيطالية •

(٩) المصدر السابق ج ٢ ص ٣١١ •

وقد ذكرنا قريبا ملاحظة « رينان » عن علاقة
الفرنسيسكان بالفلسفة الاسلامية وتأثرهم بها .

ثم فيما بعد ذلك نرى فرقة مسيحية متطرفة في
التسامح ، كانت تقول بوحدة الوجود ، تلك هي فرقة « اخوة
وأخوات الفكر الحر Fratellie sorelle del libero sperito
التي ظهرت في ألمانيا (١٠) العليا ، وسويسرا وتبدو لها
علاقة بمبادئ الفيلسوف « أمالريكو دي بينا » الذي استقى
آراءه من التيار الأفلاطوني الحديث في الفلسفة
الاسلامية (١١) .

وهذه الطائفة الى جانب صوفيتها التي ذكرناها ، كانت
تنفي كل الوهية خاصة للمسيح ، الى غير ذلك من آراء
تسامحية حرة .

وهكذا نجد مظاهر الاتصال بين الحركات الكنسية
والثقافة الاسلامية ، بما لا نطيل فيه أكثر من ذلك ، مطمئنين
الى أن الأثر العام لهذا الاتصال الذي قدمنا بيانه ليس خافيا ،
بل هو من البيان بحيث يعد نفس القارئ المنصف للقول
بالتأثير الاسلامي الخاص .

(١٠) هذا ما ذكرنا اليه في فصل ٢ بقرة ١١ ، عند الكلام عن صلة البيئة الألمانية
خاصة بالثقافة الاسلامية .

(١١) مور : المصدر السابق ج ٢ ص ٣١٥ - ودي بينا هذا فيلسوف مدرسي كان
أستاذا للموت توفى سنة ١٢٠٦ م . وقد كفرته الكنيسة وبددت جثته .

الآثار الخاصة

(فى مبادئ الاصلاح البروتستانتى نفسها)

٥ - اذا قيل ان خصائص الحضارة الاسلامية ، والدين الاسلامى ، قد تسربت خلصة تقريبا الى العالم اللاتينى (١) -
ثم اذا ما قيل ان الأدلة كافية فى تبين مجرى النظر الفلسفى والدينى ، أثناء انتقاله من الشرق الى الغرب (٢) -
اذا ما قيل هذا وذلك من ياحثين غربيين ، فانا نعمون بعم الذى بيناه : ان مسالك هذا التسرب ، ومظاهر هذا الاسمان قد صارت معروفة جليلة ، واننا نتقدم مطمئنين ، لتبين وصولها الى أهم أصول الاصلاح المسيحى الذى خلف المذهب البروتستانتى - واليك البيان :

١ - أهم أصول الاصلاح ، والطابع العام له فى جميع الأقاليم ، هو :

رفض السلطة الكنسية ، سواء أكانت ممثلة فى البابا ، أم فى المجامع (٣)

وهذه الفكرة الاصلاحية قد ظهرت منذ الاصلاح الأول ، على يد الفالديين ، فى القرن الثانى عشر ، وقد استرعينا

(١) جويدوى ووجرو : تاريخ الفلسفة المسيحية ج ٣ ص ٧ .
(٢) ١ - جيوم : تراث الاسلام ج ١ ص ٢١٨ من الترجمة العربية .
(٣) مور : المصدر السابق ج ٢ ص ٣٤٥ .

نظر القارئ - فى فصل ٣ فقرة ٣ - ليقدر أثر البيئة المادية والمعنوية التى نشئوا فيها جنوبى فرنسا ، وما يمكن ان تتأثر به من الاسلام .

بل نرى فى عصر أقدم من عصر الفالديين بقرون ، ان « جريرت دوفرن » وهو « البابا سلفستر الثانى » الوثيق الصلة بالثقافة الاسلامية ، والبيئة الاسلامية فى اسبانيا - وان أمكن الشك فى رحلته اليها - جريرت هذا قد ثار ضد السلطة الكنسية ، وهو يعد أعظم من كتب ضد الأساقفة (٤) .

ثم نجد وراء ذلك أن النقد الاسلامى لهذه السلطة الكنسية قوى شائع ، حتى ليتمثل فى أناشيد المصور الوسطى ، ويتغنى به ، فصالح الدين الذى يذكر فى الأناشيد الفرنسية واللاتينية لذلك العصر ، نراه فى احدى الروايات يناقش فى الديانات ، وأعظم عيب عاب به النصرانية هو عبادة البابا ، ومسألة الاعتراف (٥) .

وفى الحق انه يلاحظ أن فكرة بيع الفقران ، القائمة على أن كنوز الصالحات تدخر من أعمال الصالحين ، لبيع منها لغيرهم ، تلك الفكرة تناقض أصولا مشهورة ، ونصوصا صريحة فى آيات القرآن ، التى كانت مترجمة الى اللاتينية واليونانية قبل الاصلاح بقرون (٦) ، والتى اتصل بها ولا بد

(٤) الخورى عيسى أسعد : الطرف النقية فى تاريخ الكنيسة المسيحية ص ٢٠٩ .
(٥) هنرى دى كاسترو : الاسلام ص ١٤٥ من الترجمة العربية . ولقد كتب طبيب الملك فيليب دوجوست - ق ١٢ ، ١٣ - هجاء مؤلفا للقسيس سماه « الطب المقدس » .
والفالديون الذين أشبهنا الى صلتهم بالثقافة والبيئة الاسلامية ، كانوا فى القرن الثانى عشر يسمون البابا « غند المسيح » ، ويسمون الكنيسة الرومانية « بابل » .

(٦) ولئن كان القرآن يترجم فى تلك الصور للربحية فى نفسه أو الرد عليه ، فاننا لا ننسى أن هذا الاتضال السلبي المتأدى ، له أثره فى تطويع الأفكار الى المعاند ، وتأثره بها لما تعرفه من وقع الفكر والآراء على الأعصاب ، وتركها آثارها فيها ، والفعال النفس بها ، ولو بدأت صلتها بها فى هذه الصورة من المقاومة والمعارضة . تقدير هذا مما يجده الانسان فى خاصة نفسه ويشهده فى انتقال الآراء ونواميس تفاعلها لرد ذلك النظر .

فى هاتين اللغتين غير قليلين من مثقفى تلك العصور ، الذين رأينا قوة ما يمتنون به من الأسباب الى الثقافة الاسلامية العلمية ، والدينية .

ومن الناحية الفلسفية تجد الفكرة التى ترفض السلطة الكنسية فى فلسفات كثيرة - من تلك التى كشفنا عن وثيق صلتها بالفلسفة الاسلامية - وهنا نريد أن نذكر منها فلسفات متأخرة قاربت عهد انجاز الاصلاح المسيحى ، وأثرت فيه تأثيرا مباشرا ، وتلك هى فلسفة أوكام (Occam) وأتباعه مثل : ج - بيل (G. Brel) ود - أيللى (D. Ailly)

= والآيات المناهضة للفكرة بيع العربة ، وكنوز الصالحين كثيرة فى القرآن منها ما فى (سورة قاطر ٣٥ - آية ١١) « ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وإن تدع مثقلة الى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ، إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ، ممن تزكى قالوا يتزكى لنفسه وإلى الله المصير » . وما فى سورة المائدة (٧٤) آية ٣١ : « كل نفس بما كسبت رهينة » . وما فى سورة ٢ - البقرة - آية ٢٨١ : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » . وسورة ٣١ لقمان - آية ٢٣ : « يا أيها الناس اتقوا ربكم وإخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا » . الى غير ذلك من آيات فى هذا المعنى ، كانت بين يدي الأوربيين المارفين باللاتينية واليونانية . بل قد سمعنا أن فقرات من القرآن كانت تقرأ فى أوروبا الغربية نفسها ، هذا الى شروح اسلامية لهذه الفكرة عرفنا أنها وصلت الى المسيحيين ، وكانت فى منازلهم ، حينما كانت الكنيسة تصرف فى بيع صكوك الغفران ، واستغلال فكرتها فى ذلك تأييدا لسلطانها .

وحين نسوق الشواهد على مبدأ « أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ، ذلك المبدأ الذى لم يجنح القرآن الى عيه ، يحسن أن نقول : إن العهد القديم مثلا لم يؤيد هذا المبدأ ذلك التأييد المطلق إذ ورد فى التوراة للنسوة الى موسى ، فى سفر التثنية : اصحاح : ٥ آية ٩ : ضد هذا المبدأ حين تقول : « لأنى أنا الرب الهك اله غيور أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء ، وفى الجيل الثالث والرابع من الذين يبغضوننى » ، وفى سفر حزقيال من أسفار الأنبياء - بعد موسى - اصحاح : ١٨ ، آية ٢٠ ، تأييد هذا المبدأ « النفس التى تخطئ هى تموت ، الابن لا يحمل من اثم الأب ، والأب لا يحمل من اثم الابن ، بر البار عليه يكون وشر الشرير عليه يكون » .

لتأييد الفكرة الأولى دون الثانية يحتاج الى مرجع ، هو الاسلام على ما يبدو لى فى غير تكلف :

لقوة اتصال لوثر بتلك الفلسفة ، اذ كان أساتذته في الجامعة أوكاميين (٧) * وكان لوثر نفسه متأثرا بهذه الفلسفة ، اذ نراه حينما وقع في أزمته الروحية الدينية ، يقرأ كتب « أوكام » وأتباعه السابقين (٨) *

وأوكام هذا كان — كما قلنا سابقا — من الفرنسيسكانيين الذين ذكرنا ملاحظة رينان في أنهم من أقوى انصار الملمسة الرشدية بأوربا ، ومن الد اعداء الكنيسة وسلطتها ، و « أوكام » هذا هو الذي قلنا انه احتمى بلويس ملك بافاريا ، مع مارسيليو دى بادوفا ، وقال له اوام كلمته المشهورة « دافع عنى بسيفك أدافع عنك بفلمى » (فصل : ٢ — فقرة : ١١) *

وتلك الصلة القريبة بالفلسفة الاسلامية تكفى اجمالا ، لكننا نجد فى القسم السياسى من الفلسفة الرشدية ، ان فيلسوف قرطبة حين يعد حكومة الخلفاء الراشدين افضل أنواع الحكومة ، يعتبر أن شر الظلم ظلم رجال الدين ، فيفضل من حكومة الخلفاء الراشدين ، تلك الحكومة التى لا تعتد لنفسها شيئا من السلطان الدينى على الأشخاص ، ولا تحتفظ بشيء من الامتياز ، أو الوساطة أو الفضل لهؤلاء الخلفاء ، وينقم على ظلم رجال الدين معتبرا اياه شر الظلم (٩) *

(٧ ، ٨) مور : المصدر السابق ج ٢ ص ٣٤٨ — دائرة المعارف الإيطالية الجديدة مادة لوثر *

(٩) يتصل بهذه الفكرة الإصلاحية فى قبل السلطة الدينية فكرة المصلحين ، فى عدد جميع المسيحيين قسسا ، لهم حق الظهور بين يدى الله ، والصلاة للآخرين — مور : تاريخ الأديان ج ٢ — ص ٣٥٠ — *

وهذه الفكرة فى استخلاص الدين من رجال الكنيسة وردت الى العوام ، وجعله حقا لكل أحد لا حكر فيه لفرد أو طائفة ، هذه الفكرة ليست الا صدى الأثر العام للاتصال بالاسلام شرقا وغربا ، ذلك الأثر الذى وصفناه فى الفصل الثالث * فقرة ٢ ، ٣ ، ثم هى النتيجة المباشرة لاطراح سلطة البابا ، وتسفيه فكرة الوساطة بعامة — مما بينا فى هذه الفقرة طريق وصوله عملا وفلسفة الى البيئات المسيحية من المصادر الاسلامية * وكون هذه الفكر مبادئ اسلامية أصيلة ، لا يحتاج الى استدلال ولا استشهاد *

وهكذا نرى ان أنكار السلطة الشخصية الفردية في الدين ، وعدم الاعتراف لأحد بها ، من الخصائص الاسلامية ، التي تسربت الى أوروبا على لسان المسلمين ، وفي تعليم دينهم ، وعمل خلفائهم الأولين ، بعد ما ترجم من عبارات قرآنهم وفيما انتقل من فلسفتهم ، وفي تحريرها للمقول ، الى آخر ما بيناه في هذه الفقرة ، وكشفنا به عن مسالك ذلك التسرب ، واضحة قوية الاتصال .

٦ - الفكرة الثانية من أصول الاصلاح : - أنه يكفي للنجاة تصحيح العقيدة ، فالنجاة منحة من الله ، يتلقاها كل انسان من ربه رأساً بواسطة العقيدة دون العمل التوسطي للكنيسة في ذلك ، اذ لا وساطة للكنيسة بين الله والناس (لوثر) (١٠) .

وهذه الفكرة تتضح بأيسر التأمل صلتها بالفلسفة . وما يتحدث من مذاهبها عن الروح وارتباطها بالمالأ الأعلى وهنا يتسع مجال التأثير بالتفسيرات الفلسفية الاسلامية لمثل هذه الأفكار .

على أنا لا نقف في هذا عند حد الاتصال العام الذي ذكرناه ولا نكتفي بالاستنباط النظري لهذا التأثير ، بل نجد في أقلام المؤلفين الأوربيين ، حلقات تكون سلسلة ذلك الاتصال ، وتكشف عن خطوات الانتقال .

نراهم يقولون في صراحة ، ان نواة هذه الفكرة الاصلاحية ، انما توجد في تصوف ايكهارت الألماني (١١) ،

(١٠) مور . المصدر السابق ج ٢ . ص ٢٤٦ .

(١١) ايكهارت هذا هو الذي ذكرنا في الفصل الثاني . فقرة ٧ ، تأثره بآباء سيناء وسندكر هنا تأثره بالغزالي بشهادة كتاب الأوربيين أنفسهم في تاريخ الادبائه وتاريخ الفلسفة . وهو : المعلم ايكهارت ، الذي ولد بحوال سنة ١٢٦٠ م . في ستراسبورج ، وله تلمذة لآلبرت الكبير ، كما درس وعلم في باريس ، واشتهر بشيروه في انحاء ألمانيا ، وعرف مدرسته الفلسفة باسم « المدرسة الصولية الألمانية » . وهو احد رهبان الرهنة الدومينيكانية .

حين يطبق على اللاهوت (١٢) ، اذ هو يقول : ان الروح الانسانية نفحة من الأزل ، وشرارة الهية ، فلا ينبغي أن يقوم شيء من الوسائط بين الله والعقل ، بل يتم الاتصال السريع بينهما مباشرة (١٣) .

وايكهارت في هذا القول : بأن الروح الانسانية قبس الهى ... الخ ، يتصل بعلم النفس الدينى للغزالي (١٤) المتصوف الاسلامى الكبير ، الذى بينا اتصال الغرب به اتصالا مبكرا ، ووصفنا شهرته عند الأوروبيين ، ووجود آرائه فى كتب تعد أصولا فى النصرانية ، بل حصنا لها (١٥) .

★★★

(١٢) فيورنتينو : خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٢١٠ .
(١٤) ج ٠ مور : تاريخ الأديان . ترجمة ايطالية ج ٢ ص ٣٠٦ .
ورأى الغزالي فى هذا مما بينه فى أكثر من موضع من كتبه المتعددة ، والى القارى .
طرقا مما ورد فى كتابه « مدارج القدس » ، فى مدارج معرفة النفس « طبع القاهرة سنة ١٣٤٦ هـ - اذ يقول فى ص ١٠٣ منه ما نصه :
« والا فكل قلب حر بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق ، وإن كان بينها » تفاوت كثير ،
لأنه أمر ربانى شريف كما ذكرناه ، فارق سائر جواهر الصالح بهذه الخاصية والشرف
والله الاشارة بقوله تعالى « انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها
وأشفقن منها ، وحملها الإنسان » اشارة الى أن له خاصية تميز بها عن السموات والأرض
والجبال يسار بها مطلقا لحمل أمانة الله تعالى ، وتلك الأمانة هى المعرفة والتوحيد .
« وقلب كل آدمى مستعد للأمانة ومطيع لها فى الأصل » . وقد قال فى ص ١٦ من هذا
الكتاب ، « ونحن حيث أطلقنا فى هذا الكتاب لفظ النفس والروح والقلب والعقل »
« فنريد به النفس الانسانية التى هى محل المشغولات » . وعلى هذا جرى حديثه هنا
عن القلب .

(١٥) تقرأ فى كتاب تراث الاسلام ج ١ ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، من الترجمة العربية
ما نصه : « ولياحت هذا المؤلف - الغزالي - ونتائج أشباهه كثر فى كتاب « الخلاصة
الفلسفية » الذى ألفه القديس توما ، وهذه حقيقة يصعب أن تجد لها أكثر من تفسير
واحد » ، ثم تقرأ فى ص ٣٢٠ منه : « وإن فى وجود مذاهب اسلامية الأصل فى كتاب
الخلاصة الفلسفية للأكويني - وهو حصن المسيحية القوية لدخضا كافيا لاتهام العرب
بالبجب ، ودميهم بالفكر الى الابتكار » ، وفى ص ٣١٦ قبل ذلك يقول عن العرب ما نصه :
« لقد كان لهم الفضل فى استبقاء نور العلم وضاء ، ومهما قيل فى ضالة عظم فى
تقديم الفكر الفلسفى البحت ، فإن خدمتهم للالهيات كانت على أعظم جانب من الأهمية »
وأنت حين تقرأ هذه النصوص تجد قولنا يأخذ أفكار اصلاحية عن مصادر اسلامية ، على
يد رجال اسلاميين ، ليس بدعا من القول ولا التياتا ، بل هو حقيقة ، تؤيدها النظرة
الأوربية العلمية ، وإن كنت لم أجد من ارتقى بها ، حتى انتهى الى القول صراحة بهذه
العلة بين الاسلام واصلاح المسيحية ، فى الأفكار الدينية بخاصة .

على أنى من جانب آخر ، ألح صلة بين هذه الفكرة فى كفاية تصحيح العقيدة وبين فكرة أخرى ، هى مسألة « الايمان والعمل » وضرورة تقدم الايمان ، حتى يوجد العمل الصحيح . . . الخ ، لكنى لا أعنى هنا ببيان مناشيء الفكرة كلها ، بل حسبنا أن نكشف جانبا واضحا من صلتها بفكرة اسلامية ، اتضح انتقالها من الشرق الى الغرب ، كما تبين طريق ذلك الانتقال ، ولعل متابعة البحث تهدينى - ان شاء الله - الى استيضاح طريق التأثير بفكرة الايمان والعمل .

٧ - الفكرة الثالثة من الفكر الاصلاحية :

أن كلمة الله هى الضابط الوحيد : فالسلطة انما هى للكتاب المقدس وحده ، وينبذ كل ما هو خارج عنه من آراء المجامع ، والآباء ، والتقاليد (١٦) .

ويلحظ أن هذه الفكرة فى الرجوع الى المصادر الأولى ، والأصول المباشرة للدين ، هى فكرة شديدة الملاءمة لروح التجديد الدينى ، واليق ما تدون ، بمحاولة اصلاح ما أصله الوحي والتوقيف ، وفيها مظهر للمحافظة يضاف على المجددين نوعا من الثقة ، ويبعد الريبة ، اذ يظهر عملهم فى صورة ابعاد الشوائب ، وتنحية الزوائد التى دخلت على الأصل ، ولهذا نجد فى تاريخ الاصلاح الدينى - مسيحيا أو اسلاميا أو غير ذلك - أن هذا الاتجاه مما يجتمع المصلحون والمجددون على السير فيه .

كما نجد فى فرق الأديان الثلاثة - اليهودية ، والمسيحية ، والاسلام - من يلتزم القول بهذا ويناضل عنه (١٧) . فهى خطوة فى التفكير مكررة ، ومظهر من التجديد مشترك .

(١٦) ج . مور : المصدر السابق ج ٢ - ص ٣٥٥ .

والدرة الكنيسة فى شرح حال الكنيسة ص ٣٥٢ .

(١٧) من هذا فى اليهودية القراءون ، وفى المسيحية القالديون ، والبروتستانت وفى

الاسلام لرق متعددة فى محاور مختلفة وبلاد مختلفة .

على أن هذا لا يكفي في تعليل ظهور الفكرة في بيئة
بمعناها ، أو دين بعينه في زمن بعينه ، بل لانزال نحتاج الى
معرفة عوامل التوجيه اليها ، وأسباب ظهورها المباشرة .

وهذه الفكرة في التعويل على الانجيل ونبذ ما عداه ،
فكرة قديمة ، قال بها الفالديون في القرن الثاني عشر ،
وقد قدمنا - فصل ٣ - ، فقرة ٤ - ما لبيئة هذه الفرقة من
صلة عملية : وصلة عقلية بالاسلام ، مع مجاورتها القريبة
لاسبانيا الاسلامية ، اذ ظهرت في جنوبي فرنسا كما سبق
القول .

على أنا نرى من حق التاريخ ، أن نشير في بيان مسارب
هذه الفكرة الى المسيحيين الغربيين لما مهدنا ببياننا -
فصل ٢ : فقرة ١٠ - من أمر الحركة الظاهرية في الاندلس ،
وتمثيل ابن حزم لها هناك ، وعمله على أخذ العقائد من
الكتاب وصحيح السنة فقط . كما نشير مع ذلك الى حرجة
تشريعية تحررية ، قاومت التقليد ، واعتمدت على السلطة
التنفيذية للحكومة الاسلامية اعتمادا لا نكاد نجد له نظيرا
في تاريخ التشريع الاسلامي ، تلك هي الحركة التي قامت
بعد ابن حزم ، في عهد المنصور الموحدى ، الذى كان شديد
الاعجاب به (١٨) . واتخذت شكلا رسميا في عهد المنصور
أبى يوسف يعقوب ابن أبى يعقوب ، الذى حكم المغرب
والأندلس ما بين سنتي ٥٥٤ هـ - ١١٥٩ م ، ٥٩٥ هـ -
١١٩٩ م ، فقد أصدر أمرا برفض فروع الفقه ، وأن
الفقهاء لا يفتون الا بالكتاب والسنة النبوية ، ولا يقلدون
أحدا من الأئمة المجتهدين المتقدمين ، بل تكون أحكامهم بما
يؤدى اليه اجتهادهم من استنباطهم القضايا من الكتاب ،
والحديث والاجماع ، والقياس (١٩) .

(١٨) ينقلون آله وقف على قبره وقال : كل العلماء عيال على ابن حزم ، وعلاقة
ابن حزم وحريته ، بتلك الحركة الموحدية في مقاومة التقليد تبدو ظاهرة واضحة .
(١٩) ابن خلكان : وفيات الأعيان - ٢ ص ٤٣٢ . ط . بولاق .

وتشرح لنا فكرة المنصور فى الرجوع الى الأصل الاول ،
محاورة بينه وبين الفقيه المالكى ، الشيخ أبى بكر بن الجدد ،
الأشبيلي زعيم وقته « ٤٩٦ هـ - ٥٨٦ هـ » ، يقول فى
روايتها : لما دخلت على أمير المؤمنين ، أبى يعقوب ، أول
دخلة دخلتها عليه ، وجدت بين يديه ، كتاب ابن يونس ،
فقال لى : يا أبا بكر ، انا انظر فى هذه الآراء المتشعبة ،
التي أحدثت فى دين الله ، رأييت يا أبا بكر ، المسألة فيها
أربعة أقوال ، او خمسة أقوال ، أو أكثر من هذا ، فأى هذه
الأقوال هو الحق ؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد ؟ ..
فافتتحت ابين له ما أشكل عليه من ذلك ، فقال لى وقطع
كلامى : يا أبا بكر ، ليس الا هذا ، وأشار الى المصحف ، و
هذا ، وأشار الى كتاب سنن أبى داود وكان عن يمينه ، أو
السيف (٢٠) .

وقد حكم القوة فعلا ، اذ تقدم الى الناس فى ترك
الاشتغال بعلم الرأى ، والخوض فى شىء منه ، على نحو
ما سبقت الإشارة اليه ، وتوعد على ذلك بالمعقوبة
الشديدة (٢١) .

والفكرة فيما يروى (٢٢) قد شغلت أباه من قبله : أبا
يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وشغلت جده عبد المؤمن بن
على ، ولكن ظهر فى أيامه ما خفى فى أيام أبيه وجده ، وأظهر
هو من الجدد فيها ما لم يظهره .

ويقال ان مقصدهم فى الجملة كان محو مذهب مالك ،
وازالته من المغرب مرة واحدة ، وحمل الناس على الظاهر
من القرآن والحديث (٢٣) .

(٢٠) أبو محمد عبد الواحد بن على التميمي المراكشي : المعجب فى تلخيص أخبار
المغرب : ص ١٨٥ ط مصر سنة ١٣٣٤ هـ .

(٢١) المصدر السابق ص ١٨٤ .

(٢٢) المصدر السابق ص ١٨٥ س ١ ، ١٠ .

(٢٣) المصدر السابق ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

والبحث في منشأ هذه الفكرة ومقصدها مما يجدر تتبعه بدقة في تاريخ التشريع الاسلامي عامة ، وتاريخ الحياة العقلية في الأندلس بخاصة ، وانما نكتفي هنا بالإشارة الى موضع الشاهد على ما قصدنا اليه من قوة فكرة الرجوع الى الأصل في البيئة الاسلامية ، خلال القرن الثاني عشر الميلادي ، واتخاذها شكلا رسميا يتدخل الحكومة .

وانك لترى حتى في المظاهر العملية لنصرة هذه الفكرة، تشابها بين الغرب الاسدي، والغرب المسيحي ، يلصق النظر ويتبرر الانتباه ، يا أبو يوسف المنصور يا امر يا حراق حسب المذهب ، بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والقرآن ، فينفذ ذلك ، وتحرق منها جملة في سائر البلاد ، كمدونة سحنون ، وكتاب ابن يونس ، ونوادر أبي زيد ، ومختصره ، وكتاب التهذيب للبرادعي ، وواضحة ابن حبيب ، وما جانس هذه الكتب ، ونحا نحوها (٢٤) . ويحدث المراكشي المؤرخ ، الذي كان شاهد عيان لهذه الحركة ، أنه شهد وهو بفاس أحمال الكتب يؤتى بها فتوضع ، ويطلق فيها النار .

وهذه النار قد التهمت في الغرب كثيرا من الارام والمفكرين كذلك ، سواء على يد الرجال المقاومين للإصلاح ، أو على يد الداعين اليه كما أشرنا الى بعض ذلك ، في تعليقات من هذا البحث .

والفكرة الاسلامية في الرجوع الى الأصل الأول قد راجت ، حتى وصلت آثارها الى المشرق ، وقال ابن خلكان (٢٥) بعد ما روى الخبر السابق عنها ما نصه : —

« ولقد أدركنا جماعة من مشايخ المغرب وصلوا إلينا بالبلاد ، وهم على ذلك الطريق ، مثل أبي الخطاب بن دحية ،

(٢٤) المصدر السابق ص ١٨٤ .

(٢٥) ابن خلكان : ج ٢ ص ١٣٧ ط بولاق .

وأخيه أبي عمرو ، ومحبي الدين العربي ، نزيل دمشق وغيرهم .

وأثر البيئة الأندلسية في التفكير الديني المسيحي وغيره مما تكرر القول فيه ، وسبقت الإشارة إلى اطلاع مثل بطرس الفينرا بلى على النظريات الدينية والإسلامية فيها ، وإلى إنشاء مدارس التبشير في إسبانيا نفسها ، وإلى إنشاء الجامعات العلمية المسيحية فيها على يد رجال من علماء المسلمين أنفسهم (٢٦) .

فالتأثر بهذه الفكرة الرسمية الرائجة ليس فيه شيء من البعد ، وهي فكرة واضحة الصلة والارتباط بالفكرة الأصلحية ، حين نرى الأخذ بالإنجيل ، والوقوف عنده فقط ، واطراح ما وراء ذلك من آراء .

٨ - ويتصل بهذه الفكرة في الاعتماد على الكتاب المقدس ، فكرة الإصلاح المسيحي في تفسير الكتاب ، ومن له حق التفسير . وقضية التفسير هي هنا صلب المسألة (٢٧) .

ورأى الإصلاح فيها أن لكل مسيحي الحق في التفسير

(Lutti Cristiani hanno lo stesso d'interpretarle - la parola di Dio)

ولعل مسألة التفسير أو التأويل هذه ، ليست قديمة قدم غيرها من موضوعات الإصلاح ، التي كانت سبب اصطدام مع الكنيسة ، فلم أرها في مسائل الفالديين الذين بكروا بالدعوة إلى الإصلاح ، بل نرى الصيغة العملية أغلب في المسائل المبكرة . أما هذا التفسير فخطوة متأخرة ، تلت شمل الفلسفة المدرسية - المتصلة والمتأثرة بالبيئة الإسلامية - مع

(٢٦) اقرأ قول : ١ - جيوم ، في تراث الإسلام ج ١ ص ٢٣٢ من الترجمة العربية ، وكانت أول جامعة عربية في أوروبا مدينة بوجودها للعلوم الإسلامية ، ذلك أن الفونس الحكيم (١٢٥٢ - ١٢٨١) قد ساعد رجلا ، اسمه أبو بكر الرقوطي ، وكان أحد أعلام العلم في عصره ، فبنى له مدرسة ، قام فيها بتدريس العلوم في شتى صورها للمسيحيين ، واليهود ، والمسلمين . ولعلنا نستطيع أن نعرف عن الرقوطي هذا أوضح وأكثر مما يقولون عنه في مثل هذه الفقرة القصيرة .

(٢٧) مور : المصدر السابق . ج ٢ . ص ٢٤٥ .

الدين حين تلاقيها ، فاثرت مسألة التوفيق بين الدين والفلسفة ، وأخذت حيزها الواسع فى تلك العصور الوسطى .

وإذا ما تحدثنا عن التوفيق بين الدين والفلسفة ، وما تلاه من تفسير النصوص المهدسة ، ومما لى الأثر الإسلامى فى هذه المسائل ، فذكرنا مثل جهاد ابن رشد فى هذا التفسير ، وأفراده آياه بالبحث فى كتاب « فصل المصالح فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » ، مع تعرضه له فى غير ذلك من كتاباته سعيا الى رفع ما يظهر من مناقضة بين العلم والدين ، حينما تكون ظواهر عبارات الوحي مثيرة لشيء من هذا .

والرغبة فى التوفيق ، والعمل عليه ، قد أخذت دورا من حياة الفلسفة المدرسية كما أشرنا الى ذلك - فصل ٢ - فقرة ٧ وفصل ٣ فقرة ٢ مع هامش ١ - ، والعلاقة بين ديار العاملين على هذا التوفيق فى الغرب وبين المصادر الإسلامية ، مما يتبين كذلك جليا فيما سبق ، وتجد منه على سبيل المثال ما يذكره كتاب الغربيين عن العلاقة بين القديس توما وغيره من مفكرى الغرب ، وبين ابن رشد ، وغيره من مفكرى الإسلام ، واستفادة هؤلاء من تلك المنابع الإسلامية (٢٨) .

ولسنا بحيث نقصد هنا الى تأريخ حركة التوفيق فى الغرب ، وإنما نريد أن نقول : ان التفسيرات الرافعة للتناقض الظاهر ، كان يستطيعها أمثال ابن رشد بأنفسهم دون صعوبة كبيرة ، ولم يكونوا يجدون من ينكر عليهم هذا الحق فى التفسير - وان خولفوا أو أنكرت عليهم آراء يعينها

(٢٨) اقرأ فى هذا فوق ما تكرر ذكره من مصادر تاريخ الفلسفة والأديان ما ورد فى الجزء الأول من تراث الإسلام - ترجمة عربية - صفحات ٣١٠ و ٣١١ و ٣١٧ وغيرها .
« وفى خلال هذا يقرر الكاتب أن ابن رشد بهذا الجهد فى التوفيق بين الدين والفلسفة ، قد ترك للعلم المسيحي أكثر من التعليق على أرسطو . »

فى هذا التفسير - على حين كانت البيئة المسيحية التى اقتفت أثر المسلمين فى هذا ، تجد العائل القوى دون المضى فى سبيلها ، لأن الكنيسة وحدها ، هى التى كانت تتولى الفصل فى تفسير نصوص الانجيل (٢٩) •

على أن هذا الحق فى التفسير كما أشرنا قريبا ، يتصل بفكرة الاعتماد على الكتاب المقدس وحده وطرح ما عداه ، ثم انه قدر مكمل لفكرة رفض السلطة الكنسية ، ورفض وساطتها فى الغفران ، اذ لا جدوى فى ذلك كله حين يبقى حق تفسير الكتاب المقدس للكنيسة وحدها ، تستخرج من تفسيراتها الخاصة للكتاب ما تستبقى به هذه السلطات أو أكثر منها •

وليس من القليل الاثر فى هذا ما عرفه الغربيون - المتصلون بالتفكير الدينى والعلمى فى الاسلام - من نظام التفسير عند عامة المسلمين لكتابهم المقدس ، وتحكيم الأصول الأدبية والعقلية فيه ، دون سلطة لأحد بعينه فى ذلك ، أو رجوع لسلطة معينة يتلقى منها التفسير •

٩ - المسألة الخامسة مما تأثر فيه الاصلاح بالاسلام ، مسألة سر الشكر أو « الافخارستيا » *eucarestia* (٣٠) انكار الاستحالة الحقيقية ، مع الاعتقاد بوجود المسيح فى القربان الى جانب الخبز والنبيذ ، دون أن تكون استحاله حقة •

(٢٩) المصدر السابق ص ٣١٣ •

(٣٠) هى مناولة كنسية تمثل العشاء الاخير ، الذى تناوله المسيح مع تلاميذه ، وتختار القرايين فيها من افضل المذمم من خبز وخمر ، يعتبر الخبز جسد المسيح ، ويعتبر الخمر دمه ، ولها رسوم اختلفت باختلاف ادوار حياة المسيحية • وكان من أسباب انفصال الكنيسة الشرقية عن الكنيسة الغربية وحرمان كل واحدة منهما لصاحبتها ، استعمال القطير لى هذه المناولة بدل الخبز • ويلاحظ أن الخلاف حول هذه المناولة ثار فى الغرب منذ انتقلت اليه عدوى البحث العقلى الدينى من الشرق ، فمنذ القرن الماشر بحثوا فى كيفية وجود جسد المسيح ودمه ، وانكرت استحالة الخبز والخمر الى جسد ودم ، وقيل انهما يبقيان خبزا وخمرا بسيطين وما هما الا رسم لجسد المسيح ودمه فقط •

وهذه المسألة قديمة كذلك * قد نظر فيها بطرس اللومباردى Pietro Lampadi منذ القرن الثانى عشر ، وقال بها فعلا « أوكام » و « أيلى » * وعن هؤلاء أخذها ، لوثر ، الذى وصفنا صلته بهم - فصل ٣ فقرة ٥ - فاذا وقدر أن الفكرة فلسفية الأصل ، نشأت فى تلك البيئة المدرسية * التى عانت التوفيق بين الدين والفلسفة ، وقال بها - كما رأيت - أولئك الفرنشيسكانيون ، الذين عرفوا بنصرة الفلسفة الاسلامية ومن كل هذا يظهر قرب هذه البيئة الى التفكير الاسلامى وتأثرها *

فلنذكر فى هذا المقام أن الفلسفة والدين فى الاسلام أو الفلسفتين ، العامة والكلامية ، قد تعارضت نظرتاهما فى مسألة الأسباب والمسببات ، فكان طريق التوفيق بينهما فى ذلك ، طريقا ينتهى الى مثل هذا التوفيق ، بين النظرة المسيحية الدينية ، والفلسفة المسيحية المتدينة ، فى مسألة الشكر التى نتحدث عنها *

فى هذه المسألة المشابهة للمسألة المسيحية ، أى مسألة الأسباب والمسببات بين الفلاسفة والمتكلمين المسلمين ، قال المتفلسفة بالسببية المحضة ، وأنكرها المتدينون ، ولم يروا لها تأثيرا ، فرأى المتكلمون أن ليست الأسباب الا أسبابا عادية ، ووجود المسببات عندها انما هو بخلق الله لا بها (٣١) *

= بل ثار الخلاف فى القرن الثانى عشر حول أن جسد المسيح ودمه المتناولين : هل هما قابلان للفساد كما كان جسد المسيح قبل الصلب ، أو هما غير قابلين للفساد كما كان جسده بعد الصلب ، وهو خلاف يندو غريبا *

ولما الخلاف بشأن هذه المناولة منذ ظهرت ملامح الإصلاح المسيحى ففويت فكرة انكار استحالة الخبز والخمر الى جسد ودم ، حتى كان رأى لوثر هو ذلك التوفيق الفلسفى الذى شرحناه ، وإن المسيح يوجه الى جانبهما دون أن يتحولا الى جسده ودمه *

(٣١) المسألة معروفة فى البيئات الكلامية ، لكنى مع ذلك أضح بن يدى القارىء طرفا مما ورد عنها فى كتاب التهاات الذى كان معروفا رائجا عند الأوربيين فى القرون الوسطى ، فقد عقد الامام الغزالى فصلا فيه ، عنوانه « مسألة الاقتران بين ما يعتقد فى العادة سببا وما يعتقد مسببا ليس ضروريا عندنا ... » وفيه يقول : « المقام الأول : أن يدعى الخصم =

وقد كانت هذه المسألة مثار المشادة القوية بين ابن رشد والمتكلمين في رده على تهاافت الغزالي ، وكلاهما مثل جانباً من جانبي التفكير ، ونحن نعرف أن الغزالي قد كانت آثاره بين يدي الغربيين في سنين مبكرة من القرن الثاني عشر الميلادي ، ونعرف أن تهاافته قد ترجم الى اللاتينية ، واقتبست منه أفكار بذاتها في مؤلفات مسيحية ، على ما سبق بيانه ، كما نعرف أن الفلسفة الرشدية قد سادت وتحكمت في اوربا عهوداً طويلة ، فالجانبان من الرأي وحججهما - قد كانا في أيدي فلاسفة الغربيين بلا مراء ، دهرًا طويلاً -

وإذا ما قدرنا كل هذا فلا يعد في أن نقول : ان هذا الحل الفلسفي بعينه في مسألة الاستحالة ، قد جاء محاكاة للحل في مسألة الأسباب - وهي فلسفية أيضا وأن نجد القرب الشديد بين هذه الفكرة الفلسفية في مسألة الاستحالة الدينية للخبز والنبيد الى جسد المسيح ودمه ، والفكرة الكلامية في مسألة الأسباب الفلسفية ، نعم نجد قرباً يبرر الاطمئنان الى استنتاج أن الفكرة في وجود المسيح عند مادة سر الشكر ، لا أن المادة تستحيل فعلاً الى جسده ودمه ، قد تأثرت بفكرة أن المسيبات يخلقها الله عند وجود أسبابها ، لا أنها توجد بها نفسها - الفكرة هي الفكرة ، والنزاع يشبه النزاع ، والمتنازعان هما العقيدة والفلسفة - والتوفيق الاسلامي ديني يريد ارضاء الفلسفة ، والتوفيق المسيحي فلسفي يريد

= أن فاعل الاحتراق هو النار فقط ، وهو فاعل بالطبع لا بالاختيار ، فلا يمكنه الكف عما هو طبعه بعد ملاقاته لحل قابل له ، وهذا مما ننكره ، بل نقول : فاعل الاحتراق يخلق السواد في القطن ، والفرق في اجزائه ، وجعله حراة - كقرب ما يقع فيه النار عند الفتح - ورمادا هو الله تعالى ، اما بواسطة الملائكة أو بغير واسطة ، فاما النار فهي جماد لا فعل لها ، فما الدليل على أنها الفاعل ، وليس لهم دليل الا مشاهدة حصول الاحتراق عند ملاقة النار ، وملاحظة تدل على الحصول عنده ، ولا تدل على الحصول به - الى أن يقول بعد ذلك ، فقد تبين أن الوجود عند الشيء لا يدل على أنه موجود به - ا ه - من ص ٦٥ - ٦٦ - تهاافت الفلاسفة ، طبع القاهرة سنة ١٣٢١ -

ونقد نافتن ابن رشد هذا الفصل من ص ١٢٢ وما بعدها من تهاافت التهاافت - طبع القاهرة مع تهاافت الغزالي -

أن يفهم الدين ، أو يرضيه ، والتوفيق الغربى متاخر عن التوفيق الشرقى بوقت طويل ، وقد عرف اللاحق السابق

١٠ - المسألة السادسة من نواحي التأثر : مسألة قديمة ، ظهر بها مذهب مسيحي قديم ، منذ عصور مبكرة ، واقرها الاصلاح ونصار عليها ، تلك هى مسألة الصور ، اذ قال المذهب الايكوثوكلاستى Iconoclasti ، فى القرن الثامن الميلادى ، بإبطال عبادة الصور ، ورفعها من المعابد ، بن وصل الى تدنيسها وتحطيمها ، ثم اتفق البروتستانتيون جميعا على ابطال عبادة الصور .

وهذا المذهب قديم الصلة بالاسلام فى الشرق - ولو ان فكرته نفسها أقدم ظهورا من الاسلام - ، والعلاقة بين ليون الثالث الأيساورى مكسر الأصنام ، الذى أقلق سلام الكنيسة ، وأظهر الفكرة فى عنف ، وبين الاسلام والمسلمين علاقة وثيقة (٣٢) . وفى تحليل عمله ضد الصور ، يقول كاتب كنسى - هو الخورى عيسى أسعد صاحب كتاب الطرفة النقية - : ان ليون فعل ذلك لأسباب سياسية ، اذ رغب فى التقرب الى المسلمين بذلك ، أو فعل ذلك تقليدا لحركة من هذا النوع قام بها فى ذلك العهد المسلمون فى ديارهم .

ولا يعنينا كثيرا أن نعمل لترجيح أحد الاحتمالين فى هذا المكان ، فكلاهما كاف لايضاح أن أقوى حركة عرفها تاريخ المسيحية ضد عبادة الصور كان لها بالاسلام مثل ذلك الاتصال فى نشأة القائم بها - ليون الثالث الايساورى leone III l'isaurier أمبراطور القسطنطينية - وفى تفكيره .

(٣٢) يتحدث ابن الأثير فى الكامل - ج ٥ ص ١٠ وما بعدها ط. القاهرة - بأن ليون هذا جاسوس للعرب ، وأنه جاء سليمان بن عبد الملك فضمن له فتح الروم ، فكانت غزوة مسلمة للقسطنطينية التى يقص ابن الأثير خبرها فى هذا الموضع ويبين كيف انتهى الأمر بتسليم الروم ليون هذا عليهم اذا صرف المسلمين ، وأنه احتال لذلك ، وبعد هذا يوضح سنوات قام بحركته فى تحطيم التماثيل وإبطال عبادتها ، تلك الحركة التى تكاد تكون أقوى ما عرف فى تاريخ مقاومة التماثيل بالكنيسة .

والحركة الاسلامية التي سمعت خبرها في تحطيم التماثيل ، هي التي قام بها الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك سنة ١٠٢ هـ ٧٢٠ م ، - وكانت حركة ليون المسيحية سنة ٧٢٦ م - ، اذ كتب يزيد الى حنظلة بن صفوان والى مصر ، أن يكسر الأصنام والتماثيل فكسرت كلها ، ومحيت من ديار مصر وغيرها في أيامه (٣٣) .

ويذكر صاحب الطرفة النقية الآنف ذكره في سبب قيام يزيد بن عبد الملك بهذه الحركة ، أن حاخاما يهوديا اعراه باصدار أمر يحظر فيه التصوير لكي لا يكون للمسيحيين ميزة على كنيس اليهود ، ففعل ، لكن امر يزيد على ما يرويه صاحب النجوم الزاهرة لا ذكر فيه للتصوير أو الصور ، والخليفة يزيد في غنى عن أن يحرض على هذا تحريضا سواء بشأن الصور أو التماثيل ، والأمر في الأخيرة أشد ، نعم لا بد أن يكون هناك سبب مباشر ، دفع الى اصدار هذا الأمر الخاص بكسر التماثيل ، ولكن ليس يجب أن يكون المحرض من غير البيئة الاسلامية ، الناقمة على ذلك دائما .

وعلى كل فالمؤرخ لا يغفل في سهولة صلة ما بين عمل يزيد ، وعمل ليون في وقت متقارب ، لا يزيد الفرق فيه عن بضع سنوات ، بعد ما عرفت صلة ليون القوية بالمسلمين ، ولحظها كاتب كنسى .

تلك مسائل مما تجلت فيه الصلة بين الاسلام عقيدة وعملا وتفكيراً ، وبين البيئات الاصلاحية المسيحية في أوروبا ، وأكثرها مما تبين فيه طريق الاتصال بعبارات الكتاب الغربيين أنفسهم .

وفي هذا ما يكفي للتمهيد للفكرة ، ولفت نظر علماء تاريخ الأديان الى استكمالها ، بالدرس والتنقيب في حياة

(٣٣) ابن تفرى يردى : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٥٠ طبع دار الكتب الملكية .

الدينين - وما يصل طماعيتي في متابعة هذه الدراسة واستيفائها •

وإذا كان الأستاذ الفريد جيوم يقول بعد ما تحدث عن تراث الاساذم في الفلسفة والالهيات ما نصه : - «سوف نرى عندما تخرج الى النور الكتون المودعة في دور الكتب الأوربية ، أن تأثير العرب الخالد في حضارة العصور الوسطى ، كان أجل شأنًا وأكبر خطراً مما عرفناه حتى الآن » •

فانى لأقول : سوف نرى عندما تتجه الرغبة العلمية الى درس هذه الصلة بين الدينين في نزاهة واخلاص ، أن أثر الاسلام في حياة أوربا الدينية ، لا يقل أبداً عن أثره في حياتها الفلسفية ، والعلمية ، والفنية •

خاتمة

كان لهذا الموضوع عند الغربيين سواء في مصر أو أوروبا وقع لافت، حتى لقد تقدم الينا في حفلته افتتاح المؤتمر، بمدينة بروكسل أعضاء الوفد الايطالى، يسألون عن الوفد المصرى، ومن سيتكلم في موضوع «الاسلام والاصلاح البروتستانتى» مظهرين اهتمامهم بالموضوع.

ولقد تملطف الاستاذ هـ. ماسى H. Massi الاستاذ بجامعة باريس، والذي اختير لرياسة القسم الاسلامى بالمؤتمر، فسأل بعد القاء خلاصة الموضوع، عن طبعه، ومتى وأين يكون؟ وطلب أن أرسل اليه نسخة عربية عند ما يتم ذلك. - اذ هو لا يعرف الايطالية التى كتب بها البحث، على ما أظن. - ولعل في هذا الاهتمام بالموضوع ما يرجع الى شىء من الدهش لجدته، أو ما يرجع الى تشوف العصبية الدينية، لما يمكن أن يقال فيه.

فأما الجدة فنعم. وأما العصبية فأحسب أن الله قد وقى من خطرهما على الحق. ويهمنى أن أؤكد فى الختام ما قلته فى البدء من: أن البحث العلمى النزىه، هو الطلبة الأولى والأخيرة فيما كتبت، وأرجو أن يشعر القارئ معنى بهذا، وأن أكون قد وفقت الى التزام ذلك دائما.

وأرى من الخير، أن أشير الى حادث يسير الخطر، كبير الأثر، يمس هذا الموضوع فى مصر، ويتصل بفهمنا للأمانة العلمية، وتقديرنا لها. ذلك أن الحديث عن موضوع هذا

البحث ، واختياره ليقدم الى المؤتمر ، كان قد تناثر بمصر منذ وجهت الدعوة اليها ، حوالى نهاية ١٣٥٣ هـ - ابريل سنة ١٩٣٥ م وذكرت اذ ذاك أن هذا الموضوع ، يشغل فكرى منذ نحو عشر سنوات ، أيام كنت فى روما ، ورأيت نسخة من ترجمة القرآن الكريم ظهرت حوالى عهد الاصلاح الدينى ، وقيدت ذلك فى مذكرات علمية محفوظة .

فى تلك الأثناء - أواخر سنة ١٣٥٣ هـ - كانت مطبعة المنار ، تخرج طبعة سابعة من رسالة التوحيد ، للاساد الامام الشيخ محمد عبده ، وقد اعتاد الناشر ، وضع عناوين فرعية من عنده فى رموس الصفحات ، تبين محتويات الفصول ، كما صرح بذلك فى صفحة ١٦٦ من الطبعة السابعة نفسها ، وكما رأى من حقه أن يعلق على الرسالة فى هامش الصفحات ، تعليقات من عنده .

ففى الطبعات المتقدمة على هذه الطبعة ، كان يضع بين عناوينه الفرعية للفصل الخاص بانتشار الاسلام فى سر الرسالة ، عناوين : هما « الحروب الصليبية » و « استفاضة أوروبا من الاسلام » . سمى فى الطبعة السابعة التى أرخها بعام ١٣٥٣ هـ ، استغنى عن هذين العناوين ، بعنوان جديد نصه : اقتباس الاصلاح الدينى فى أوربة من الاسلام - ص ١٩٤ ط سابعة - وورد فى الرسالة تحت هذا العنوان ما عبارته « ولم يكن بعد ذلك الا قليلا من الزمن ، حتى ظهرت طائفة منهم تدعو الى الاصلاح والرجوع بالدين الى سذاجته ، وجاءت فى اصلاحها بما لا يبعد عن الاسلام الا قليلا ، بل ذهب بعض طوائف الاصلاح فى العقائد (١) الى ما يتفق مع عقيدة الاسلام ، الا فى التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن ما هم عليه انما هو دينه يختلف عنه اسما ، ولا يختلف معنى الا فى صورة العبادة لا غير » . ا هـ .

(١) هنا علق الناشر فى الهامش بما نصه « هم طائفة الموجدين واكثرهم من الانكليز والأميركان » ، وهذا التعليق أيضا جديد فى هذه الطبعة السابعة لا يوجد فى الطبعات الأخرى .

وما فى هذه الفقرة من أن الاصلاح لا يبعد عن الاسلام الا قليلا ، او ان المعائد صارت به تسقى مع عقيدة الاسلام . . . ايج ، لا ذكر فيه لشيء من الاقتباس او اسائر ، ولا يكفى لوضع هذا العنوان الصريح ، عن اقتباس الاصلاح الدينى فى أوروبا من الاسلام ، ولو كان مثل هذا المعنى الذى فى العنوان ، قد اتجه اليه الأستاذ الامام ، وهو يكتب رساله التوحيد ، لما كفته فيه ، تلك العبارات العامة المبهمة !!

ولقد كنت أبحث ، متمنيا أن أجد من صرح بهذا الاقتباس فى الشرق او فى الغرب لأشعر بنصرتة للفكر ، ثم أمضى فى بيانها وتأييدها ، فلم تصل يدى الى شيء من ذلك . ولو أن الأستاذ الامام ، قد أشار الى هذا الاقتباس لكان ظهيرا لى أنس به ، لأتقدم الى بيان الفكرة ، وتأييدها ، على نحو ما صنعت ، فى كشف مسالك الاتصال والانتقال بين الدينين ، وما كان لذلك من أثر فى مبادئ الاصلاح المسيحى ، وآراء أصحابه . . . لكن كلام الأستاذ الامام لا يفيد شيئا من ذلك فى قرب .

★★★

فناشر المنار قد أضاف الى رسالة التوحيد ، عنوانا جديدا - ص ١٩٤ ط سابعة - ليس له ظل من الوجود فى الطبوعات السابقة ، كما زاد هامشا جديدا فى الصفحة نفسها ، ليس له وجود فى الطبوعات السابقة - ولا رعاية فى هذا كله لشيء من الأمانة العلمية ، وفيه ما فيه ، من التعمية على التاريخ ، ولا مبرر لذلك كله ولا مقتضى له - وكان خيرا من ذلك لو أراد فائدة قرائه ، أن يشير فى الهامش ، الى ظهور هذه الفكرة ، وتكميلها البحث ، واثباتها استفادة أوروبا من الاسلام ، فى آراء الاصلاح نفسها .

ولو مضيت فى الاستنتاج الذى تبرره الشواهد السابقة ، لاتهمت تاريخ هذه الطبعة للرسالة بعام ١٣٥٣ ، وانه لون من التعمية أيضا .

لكنى أدع. هذا كله ، مكتفيا بأن أتمنى للباحث ،
والناشر ، والقارىء فى الشرق أن يوقى مثل هذا التساهل ،
وعدم التقدير للأمانة العلمية ، ولا سيما أبناء أوسك
السالفين ، الذين عرفنا من دقتهم فى الرواية ما عرفنا ،
ورأيناهم يتخرجون فى ذلك تحرجا شديدا ، ويشيرون الى
أسر تغيير فى روايتهم ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

على هذه الأمانة لقيت قارئى منذ بدأت البحث ، وعلى
هذه الأمانة أنتهى به الى ما انتهيت اليه من نتائجه . والسلام
على من اتبع الهدى .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
فاتحة	١٧
الفصل الأول	
الاتصال المادى بين الدينين	١٩
الفصل الثانى	
الاتصال المعنوى بين الدينين	٣٥
الفصل الثالث	
من نتائج الاتصال	٥٤
الآثار الخاصة	
(فى مبادئ الاصلاح البروتستانتى نفسها)	٦١
خاتمة	٧٩

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

رقم الايداع بدار الكتب ١٦٧١/١٩٩٣

ISBN — 977 — 01 — 3233 — 0

تالمنهجية الرصينة المعهودة من الشيخ أمين الخولي
سبحث في عمله هذا - الذي القاد في مؤتمر تاريخ الأديان
ببروكسل عام ١٩٣٥ - الاتصال المادي بين الإسلام
والمسيحية في أوروبا - ثم الاتصال المعنوي بين الإسلام
والمسيحية في أوروبا - ثم أشار ذلك الاتصال في أفكار
الإصلاح المسيحي وأراء دعايته خلال تلك الأزمنة
الطويلة - وهو موضوع ذو أهمية قصوى نظرا لإشكالية
الصراع / الصراع بين الحضارات التي تشغلنا الآن
كثيرا

To: www.al-mostafa.com